رواية

السِّجِّيل

عاصف سليل الطين والنار

أحمد آل حمدان

ملحمة الطين والنار

أحداث ما بعد الجشاسة

أبابيل ٤

السِّجّيل

أحمد آل حمدان



I_AHMEDALHMDAN

الطبعة الأولى

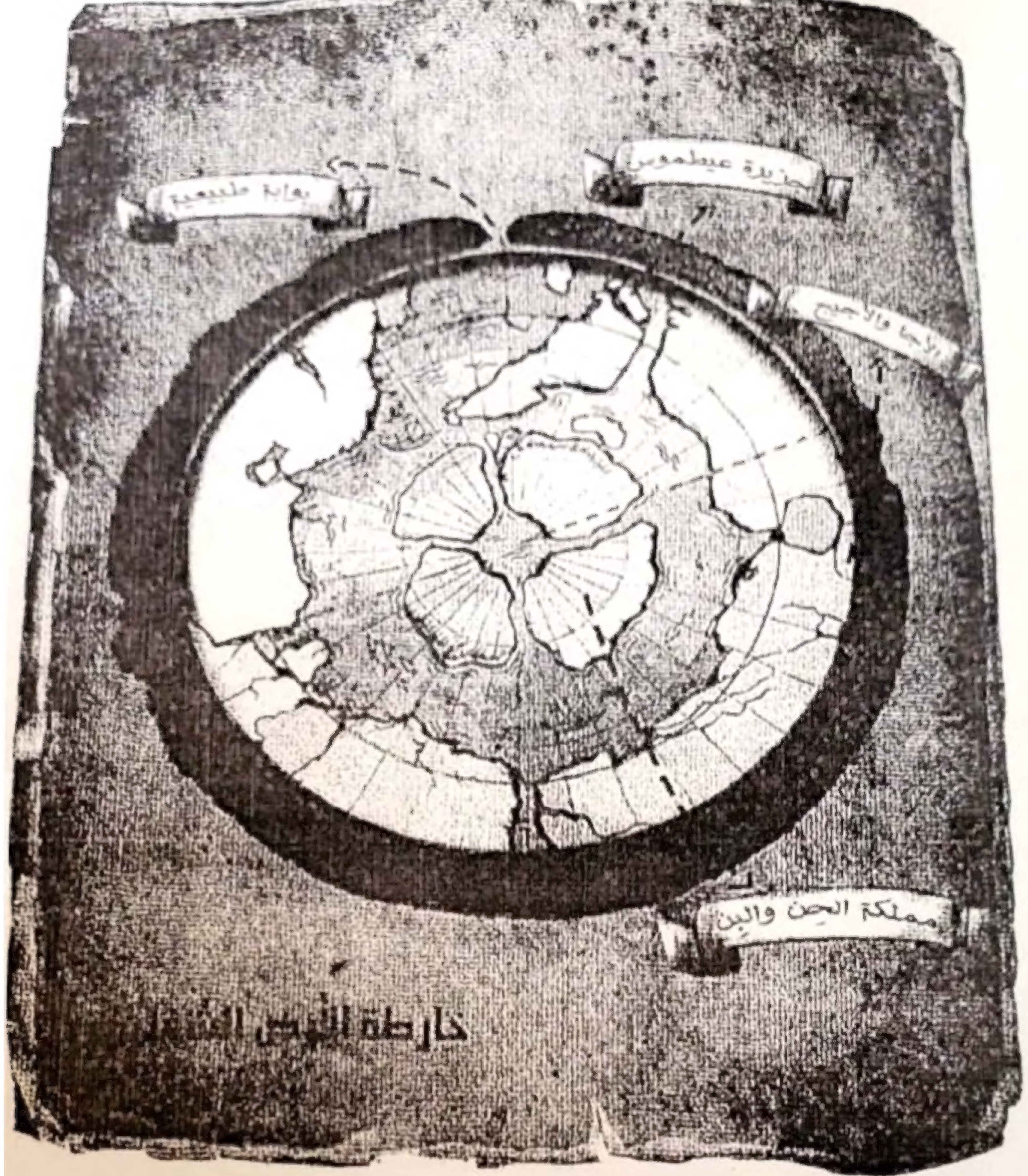
١٤٤٥ - ٢٠٢٤



خريطة تُحدد بعض ممالك ومواقع الأرض القديمة - العُليا - التي تم ذكرها
في هذا الجزء من السلسلة



يرمز مصطلح (الأرض القديمة) إلى العالم الذي تتواجد فيه الممالك الأسطورية مثل مملكة أبابيل وغيرها من الممالك التي قد جاء ذكرها في هذه السلسلة أو التي سوف يتم ذكرها في أعمال روائية قادمة.



خريطة تحدد بعض ممالك ومواقع الأرض القديمة - السُفلية - التي تم ذكرها

في هذا الجزء من السلسلة.

توقف

لا تعبر من هُنا



سوف يتبعك الموت إن عبرت.

١

لم تكن مثل بقية الأشجار،

كانت مَهيبة شاهقة الارتفاع تكاد بأغصانها المتشعبة أن تلامس تلابيب السماء.

يُقال بأنها أول شجرة غُرست على وجه الأرض؛ يزعم بعض الجن القدماء بأنهم شاهدوا أبو البشر - آدم - وهو يغرس بذرتها أسفل التربة بنفسه، ويُقال إنهم شاهدوه أيضًا وهو ينحني ليسقيها بقطرات دمعه الحزينة بعد أن أهبطه الرب من الجنة.

" تُسمى: الشجرة الحرَام "

جاءت تلك التسمية لأن ملوك الأرض القديمة كانوا قد حرموا مساسها بسوء، وقد حيكت الكثير من الأساطير حول تلك الشجرة، ولكن الأسطورة الأكثر تأكيدًا تقول:

إن أغصانها لا تَهتز إلا لشأن عظيم سيحدث عمّا قريب.

وفي مساء ذلك اليوم اهتزت أغصان الشجرة الحرام،

فاستيقظت ساكنة الكوخ - وهي امرأة غامضة تتوشح السواد - تسكن كوخًا خشبيًّا ينهض بين الأغصان .. اشرأبت المرأة الغامضة من نافذة الكوخ وأصاخت السمع بقلبها لكلام الرياح

" كانت الرياح تُخبرها بما سوف يحدث

في ملحمة الطين والنار "

ولكن الكلام الذي سمعته المرأة كان أكبر من قدرتها على التصديق؛ فصاحت في وجه الريح قائلة:

- لا .. هذا لا يمكن أن يحدث !!!

زادت الريح من شدة قوتها حتى أوشكت أن تقتلع الشجرة من جذورها؛ الأمر الذي دفع المرأة الغامضة لأن تغادر كوخها وتسير بقدميها الحافيتين فوق الأغصان حتى تصل إلى بقعة تستطيع رؤية السماء من خلالها.

رفعت المرأة رأسها،

وقد ساعدها اقتراب مغيب الشمس على رؤية تعامد النجوم في السماء .. كانت النجوم تتعامد بشكل منحنٍ متخذة هيئة قوس كبير يُنذر بقدوم شر آزف.

قالت المرأة وقد أدركت الحقيقة:

- اهدئي أيتها الريح، إنني أصدق الآن كل ما قلتيه.

هدأت رياح أبابيل وعاد الطقس هادئًا كما كان،

قالت المرأة الغامضة وهي ما تزال ترفع رأسها وتحدق نحو نذير الشر:

سوف يحدث لعاصف أمر خطير

سيجعله يتمنى لو أنه مات قبل

أن يراه.

**

هبطت المرأة من الشجرة وسارت تركض مبتعدة حافية القدمين بين الحقول .. وكانت كلما ابتعدت عن الشجرة أكثر كلما عاد جسدها شيئًا فشيئًا إلى هيئته الأصلية:

كائن

عملاق

زاحف أسود،

ينتمي إلى سُلالة كوبرا أفعى الجن

عادت رياح أبابيل تضع كلامًا في أذنها بينما كانت ما تزال تُسرع من هناك مبتعدة:

- كوني حذرة؛ فالأيام القادمة لا تُبشر بالخير يا تارا.

٢

" قصر مملكة أبابيل "

قاعة الملك

طاغين

سار الحاجب - حاجب البوابة - بخطوات بطيئة مترددة فوق رخام القاعة حتى وصل إلى حدود العرش ثم أحنى رأسه تأدبًا وأخذ ينتظر حتى يؤذن له بالكلام.

التفت إليه الجالس فوق العرش (**الملك طاغين**) وقد أدرك من خلال النظرة الأولى أنَّ هنالك أمرًا هامًّا قد جاء به الحاجب إليه؛ فقال يستنطقه:

- ما وراءك أيها الحاجب ؟

- ثمّة شيطان يقف خلف البوابة يا سيدي، وقد جاء برسالة إليك.

التفت طاغين نحو أفراد حاشيته حيث الوزراء والمستشارون من الإنس والجن يحفون عرشه عن ذات اليمين وذات الشمال، قال مخمنًا والابتسامة تعتلي وجهه:

- لا بد أنه المسترق - وأضاف:

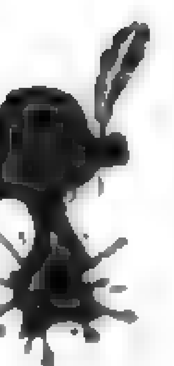
- يبدو أنه قد جاء يُبشرنا بخبر انتصارنا في المعركة.

تهللت الوجوه - وجوه أفراد الحاشية - واستبشر الجميع خيرًا ما عدا حاجب البوابة؛ إذ إنه الشخص الوحيد الذي كان يعلم جيدًا فحوى تلك الرسالة.

**

بعد قليل:

سار الشيطان المسترق بخطوات عرجاء مشوهة فوق رخام القاعة الملكية، كان يملك وجهًا دائريًّا مثل رغيف خبز متعفن، ولديه عين وحيدة تتمركز في منتصف وجهه تكاد لفرط جحوظها أن تسقط إلى الخارج.



كانت خطواته لا تُبشر بالخير أبدًا، لذلك اختفت الابتسامة من وجوه الحاضرين تباعًا، وحلّ مكانها شعور يُنذر بالقلق .. واصل المسترق خطواته حتى وصل إلى حدود العرش، ثم أحنى رأسه الكبير وقال ينقل رسالته:

- **لقد هُزمنا يا جلالة الملك.**

٭

تلقى طاغين ذلك الخبر بصدمة قاسية؛ فقد بلغت به ثقة الانتصار على عاصف حد أنه كان مستعدًّا لأن يُقيم احتفال النصر قبل أن تصله الأخبار الأكيدة.

كانت الطبيعة النفسية لطاغين تُحتم عليه التصرف بقسوة حين تصله الأخبار السيئة؛ لذلك توقع الجميع رؤية غضبه المخيف يعصفُ بالمكان ولكن لفرط سوء ذلك الخبر وجد طاغين نفسه راغبًا في الضحك كما لو أن لوثة من الجنون أصابت عقله

.. لكنه لم يضحك ..

بل أسند ظهره إلى العرش ووضع قدمًا فوق قدم، ثم أخذ نفسًا عميقًا وكأنه بذلك النفس أراد أن يُخمد شيئًا من الحريق الذي اندلع داخل صدره.

وأخذ وهو بتلك الوضعية يراجع بينه وبين نفسه الخطة التي كان قد وضعها للتخلص من عاصف، محاولًا أن يكتشف السبب الذي أدى إلى فشلها.

" فقبل خمس سنوات تقريبًا نجح طاغين وأتباعه من أفراد منظمة الجاثوم في الانقلاب على السُلطة[1] الشرعية للمملكة وقام بتنصيب نفسه ملكًا على أبابيل.

ثم ومن أجل الاستدامة - استدامة ملكه الجديد - كان عليه أن يتخلص من الوريث الشرعي للحكم (عاصف) فيضمن أن أحدًا لن يُطالبه بالمُلك أبدًا "

ولتحقيق ذلك الهدف قام طاغين بوضع خطة،

اطلق عليها اسم (مناورة الفيل)

---

١ استطاع طاغين في (رواية الجشامة) أن ينصب كمينًا محكمًا لعاصف الذي كان ملكًا آنذاك على أبابيل .. وقد استطاع بذلك الكمين هزيمة جيشه والزحف بعد ذلك نحو قصر المملكة ليحرقه ويقتل جميع الحراس ويستولي عليه.

وأخذ وهو بتلك الوضعية يراجع بينه وبين نفسه الخطة التي كان قد وضعها للتخلص من عاصف، محاولًا أن يكتشف السبب الذي أدى إلى فشلها.

" فقبل خمس سنوات تقريبًا نجح طاغين وأتباعه من أفراد منظمة الجاثوم في الانقلاب على السُلطة[1] الشرعية للمملكة وقام بتنصيب نفسه ملكًا على أبابيل.

ثم ومن أجل الاستدامة - استدامة ملكه الجديد - كان عليه أن يتخلص من الوريث الشرعي للحكم (عاصف) فيضمن أن أحدًا لن يُطالبه بالمُلك أبدًا "

ولتحقيق ذلك الهدف قام طاغين بوضع خطة،

اطلق عليها اسم (مناورة الفيل)

---

١ استطاع طاغين في (رواية الجشاسة) أن ينصب كمينًا محكمًا لعاصف الذي كان ملكًا آنذاك على أبابيل .. وقد استطاع بذلك الكمين هزيمة جيشه والزحف بعد ذلك نحو قصر المملكة ليحرقه ويقتل جميع الحرّاس ويستولي عليه.

٣

خطة طاغين

" مناورة الفيل "

بعد أن فقد عاصف بصره[٢] كان على جدته (العرّافة سِربيل) أن تأخذه إلى أعلى قمة الجبل - جبل غُراب - لتعلمه كيف يقاتل مستخدمًا حواسه الأخرى.

وبعد أيام انضم إليهما الشيذمان،

الشيذمان هو زعيم قبيلة (المُستذئبين) وهي إحدى القبائل الإنسية من ذوات السلالات المتحولة والتي تُعد واحدة من أكثر قبائل أبابيل قوة وبأسًا، وقد كان وجوده - وجود الشيذمان - مهمًا في صقل مهارة عاصف وتطويرها لمستوًى متقدم جديد.

---

٢ في (رواية الجسّاسة) فقد عاصف بصره حُزنًا بعد أن اعتقد أن زوجته وطفلته قد قُتلتا على يد طاغين وأتباعه من أفراد المنظمة بعد أن أحرقوا القصرَ واستولوا عليه.

قالت الوزيرة وهي تبتعد بعد أن أخذت الإذن بالموافقة:

- سأذهب لأجري بعض الترتيبات، وسأعود عند الفجر.

قال الشيذمان وهو يستعد للمغادرة أيضًا:

- سوف يكون المقاتلون تحت أمرك قبل موعد التحرك.

**

التحرك

مع بزوغ فجر اليوم التالي ظهرت الوزيرة خيزران أمام الكوخ، كان كلٌّ من (عاصف والعرَّافة سِربيل) حينها عند عتبة الباب في انتظار لحظة التحرك، قالت الوزيرة وهي تقترب منهما ومعها الأخبار المؤكدة:

- لقد تحرك طاغين من القصر وما هي إلا ساعات قليلة حتى يصل إلى الجسّاسة، يجب أن نتحرك بسرعة كي نصل إلى هناك أولًا فتكون لنا أفضلية المكان.

استشعر عاصف تلك اللحظة خطوات أقدام سريعة تقترب قادمة من اتجاه مدخل الجبل فقال:

- لقد وصلت تعزيزات الشيذمان.

وما إن قال ذلك حتى ظهر من بين ضباب البرد الكثيف قطيع كبير يتجاوز الألف ذئب محارب يقودهم الشيذمان بنفسه وقد كان في طور الذئب.

صرحت العرَّافة سِربيل قائلة:

- قلبي ليس مرتاحًا لهذا الأمر يا ولدي.

تجاهل عاصف حدسها آنذاك وامتطى ظهر الشيذمان ثم قال وهو يتشبث بفروه الناعم الطويل:

- لنتحرك الآن.

**

الساحة المواربة لقرية الجسَّاسة

حين وصلوا إلى هناك كانت الشمس لتوها قد بدأت بالشروق، تقدمت الوزيرة خيزران الجميع وهي على ظهر المستذئب وأخذت تقودهم نحو نقطة ما..

كان الموقع الذي قادتهم إليه الوزيرة عبارة عن أرض واسعة مكشوفة تقع على الحدود الشمالية لقرية الجسَّاسة .. رفعت خيزران يدها لتُعطي الأمر للبقية بالتوقف

.. فتوقف الجميع ..

ترجلت خيزران عن ظهر المستذئب وسارت للأمام بضع خطوات قبل أن تتوقف وتنظر إلى الخلف وتقول:

- يا لكم من حمقى وسذج، لقد ابتلعتم الطعم بكل سهولة.

ذُهل الجميع مما سمعوا، وقبل أن يستوعبوا الفخ الذي وقعوا فيه كانت الوزيرة خيزران قد ضربت الأرض بقدمها فخرج من تحت الأرض قرابة ثلاثة آلاف شيطان مسعور، ارتبك عاصف وتردد ولكن ليس لأنه استشعر اقتراب موته وموت الذين معه بل لأنه لم يخطر بباله أبدًا أن سهم الغدر المميت قد يأتيه يومًا من قوس أحد أصدقائه.

قالت العرّافة سيربيل:

- إذا كانت هذه مزحة يا خيزران فأريد أن أخبرك بأنها سخيفة جدًّا، وإذا كنتِ صادقة فيما تفعلينه ولا تمزحين فعليكِ لعائن السماوات والأرض.

قال صوت متمرد خرج من بين حشد الشياطين المسعورة:

- هذه ليست مزحة أيتها العرّافة.

ميّز عاصف الصوت وعرف هوية المتكلم " إنه طاغين " وهنا أدرك الجميع حقيقة الخيانة التي تعرضوا لها:

لم يكن قدوم الوزيرة خيزران للكوخ واستدراجهم

لتلك المنطقة إلا من أجل تنفيذ خطة

كان طاغين قد كلفها بها.

لم تتمالك العرّافة سِربيل نفسها؛ فاختفت من مكانها وحين ظهرت بعد لحظات كانت قد اخترقت صفوف الشياطين المسعورة وسددت لطاغين لطمة قوية.

كانت تريد أن تكيل له مزيدًا من اللطمات،

ولكن فرقة خاصة من حراسه الشياطين أخذوه بعيدًا من هناك.

**

ظلت العرّافة وسط أمواج الشياطين الهائجة تناور هجماتهم وتصد ضرباتهم السريعة، وتفعل كل ما تستطيعه للخروج من هناك ولكن دون فائدة.

كان على أحدهم أن يُنجدها قبل أن تهلك؛ وهذا ما دفع عاصف إلى أن يتهور ويستخدم طاقته الجديدة في اقتحام صفوف الشياطين ويُخرجها من هناك في اللحظة المناسبة.

عاد طاغين إلى القصر،

وهناك بدَّلَ ثياب الحرب التي كانت عليه وذهب إلى قاعة المُلك.

جلس فوق عرشه وأمر باستدعاء أفراد حاشيته؛ ليحتفلوا معه عندما تأتيه أخبار النصر - لقد كان واثقًا من انتصاره في المعركة - فجيشه من الشياطين كان أكثر عددًا وقوة من عاصف والذين معه وهذا ما جعله الآن يشعر بخيبة أمل شديدة حين نقل إليه الشيطان المسترق خبر الهزيمة.



توقف طاغين عن مراجعة الخطة بينه وبين نفسه؛ وذلك بعد أن عجز عن إيجاد ولو سبب واحد يؤدي إلى فشلها .. ثم قال يسأل الشيطان المسترق بشك:

- هل أنت متأكد بأن عينك الحولاء هذه لم ترَ الأشياء بطريقة مقلوبة ؟

رمش المسترق بعينه الوحيدة الجاحظة وقال بصوت مرعوب:

- لقد رأيت بعيني كل شيء يا سيدي؛ لقد طارت رؤوس شياطينك كما تطير رؤوس الخراف عند الذبح.

كظم طاغين غيظه بصعوبة، وسأل بصوت خرجت حروفه من تحت أسنانه:

- ما الذي حدث في المعركة بالضبط ؟

- لقد قتلناهم جميعًا، ولم يبقَ في النهاية إلا عاصف.

وثب طاغين من فوق عرشه بسرعة وكأنه تعرض للدغة عقرب وصاح بجنون:

- وكيف استطاع هزيمتكم وحده ؟!!!

قال المسترق وعينه الوحيدة ترتجف خائفة في محجرها:

- عند اللحظة الأخيرة ظهر شخص ما يا سيدي .. شابك أصابع يديه وتمتم بطلسمٍ ما تسبب بمقتل الوزيرة خيزران وكل من معها من الشياطين.

صرخ طاغين في وجهه:

- ومن يكون ذلك اللعين صاحب الطُّلسم ؟!

نظر الشيطان المسترق إلى سيده بنظرة منكسرة مترددة، كان يعلم أن ما سيقوله سوف يُثير سخطه وسخط المستمعين إليه ولكنه كان مجبرًا على قول الحقيقة:

- لقد كانت سرابي.

كان الجميع يُدركون أن سرابي ليست ساحرة، وأنها لا تملك القوة أو الجرأة لقتل بعوضة حتى؛ وهذا ما جعل أحد الوزراء ينهض من مقعده ويصرخ تجاه المسترق:

- أتسخر منّا أيها المسترق النجس ؟!!

التفت المسترق إليه ورمش بعينه الوحيدة:

- لا أسخر منكم، إنما أقول ما حدث وما رأيته بعيني.

سرت همهمة بين أفراد الحاشية بين مشكك ومكذب، وكاد ذلك الحال أن يستمر طويلًا لولا أن نهض أحد رجال الجن من مقعده فصمت عند نهوضه الجميع.

كان اسمه (ذِمار) وهو جني مُعمر قد واكب بسبب عمره الطويل أغلب الأحداث التي مرّت على الأرض القديمة .. قال ذِمار يسأل المسترق:

- ألاحظت عليها شيئًا غريبًا عندما نفثت طُلسمها ذاك ؟!

رمش المسترق بعينه الوحيدة وأطرق يتذكر قليلًا ثم قال:

- كان هنالك وشم غريب.

- في أي جزء من جسدها ظهر الوشم ؟!

- فوق حاجب عينها اليسرى.

عندما سمع ذِمار تلك الإجابة اتسعت عيناه وكأنه وجد أخيرًا حل أُحجية غامضة، التفت نحو طاغين الذي كان يراقب المحادثة بترقب وعدم فهم وقال:

- إنني أطلب من جلالتك اخلاء القاعة.

وأضاف الجني المعمر ذِمار بصوت معتق بالقلق:

- فالكلام الذي سوف أقوله خطير جدًا ولا ينبغي لأحد غيرك أن يسمعه.

**

الاجتماع المغلق

دام الاجتماع المغلق بين ذِمار وطاغين طويلًا؛ كانت المعلومات التي نقلها الجني إليه كفيلة بأن تُسبب تغيرًا هائلًا، ليس في مملكة أبابيل وحسب بل في موازين الأرض كلها.

وما أن انتهى الاجتماع حتى قال طاغين:

- لنتحرك بسرعة إذاً؛ فليس أمامنا كثيرٌ من الوقت يا ذِمار.

٤

الساحة المواربة لقرية الجساسة
" عاصف، وسرابي "

أظلمت السماء فجأة،

لم يكن غروب الشمس هو السبب، بل كان السبب هو سِرب الغربان الذي حجب السماء بعد أن جاء من البعيد مقتفيًا رائحة جثث الشياطين.

وقف عاصف وسط الجثث يتأمل[٤] بدهشة وعدم تصديق تلك الفتاة الواقفة أمامه (زوجته سرابي) والتي عادت فجأة بعد غياب استمر لمدة طويلة.

---

٤ في نهاية رواية (الجسّاسة) وعندَ هذا الحدث الذي يلتقي فيه عاصف بسرابي، يستعيد عاصف بصره بعد أن يستنشق رائحة زوجته ويدرك بأنها ما تزال حية.

كان يريد أن يقول لها:

" إن الرب لا يُكلف روحًا فوق ما تطيق،

لم تكن روحي تُطيق فراقك؛ لذلك كنت أعلم بأنني سألقاك يومًا "

لكنه لم يكن من النوع الذي يُجيد التعبير عمّا بداخله، لذلك عندما فتح فمه وجد نفسه يقول:

- كيف أنتِ ؟!

كان الغريب في الأمر هو أن سرابي لم تُجبه،

كل ما فعلته تلك اللحظة هو أن استدارت وابتعدت عنه.

قال يستوقفها وقد تعجب من ردة فعلها:

- سرابي ؟!

واصلت ابتعادها بصمت،

كانت تسير نحو حصانها الواقف إلى جوار فارسين مُلثمين يعتلي كل واحد منهما صهوة جواده .. فعاد يُناديها وعيناه مثخنتان بالجراح كما هو حال جسده:

- سرابي أين تذهبين ؟!!

لم تجبه للمرة الثالثة،

فصاح عليها بصوت لفرط قوته اهتزت معه جثث الشياطين:

- سرااااااابي ! ! !

توقفت مكانها أخيرًا، قالت دون أن تلتفت:

- سوف أذهب للمكان الذي أصبحت أنتمي إليه.

اختفى من مكانه وظهر أمامها، أمسكها من ذراعها وهزها بقوة وكأنه بات مجنونًا غادر دائرة العقلاء:

- المكان الذي أصبحتِ تنتمين إليه ؟!!

نظرت سرابي إلى عينيه البُندقيتين اللتين ورثهما عن والدته،

كانت عيناه غارقتين في الشتات وفيهما طوفان من الحب يجرفه بقوة إليها.

وفي المقابل نظر هو إلى عينيها طويلًا،

ولكنه لم يقرأ في تينك العينين شيئًا .. ومكث ينظر إليهما مثل غريب ينظر من البعيد نحو مدينة مجهولة لا يسكنها .. ولا يحمل لها في قلبه ذاكرة أو تاريخ.

قال:

- هذه ليست العيون التي أعرفها يا سرابي.

- لقد أصبحتُ فتاة أخرى.

- ماذا حدث ؟!

- لا أستطيع أن أخبرك.

- لماذا لا تستطيعين ؟!

- لأن .. ..

قاطعها أحد الفارسين من وراء لثمته تلك اللحظة:

- قسيدة قسرابيا.

التفتت سرابي نحو الفارس الذي لم يكن يظهر من وجهه شيء غير عينيه الحادتين مثل السُّم.

قال الفارس:

- فلقد قأتينا قما قجأنا قلأجله، قويجب قأن قنرحلا.

هزت سرابي رأسها بعلامة (نعم) ثم استدارت وسارت نحو حصانها المجنح.

وعند تلك اللحظة خطرت لعاصف فكرة متهورة.

٥

الغريبة

اصطبغت عيناه باللون الأحمر القاتم وقرر مهاجمة الفارسين المُلثمين، ولكنه قبل أن يخطو نحوهما أول خطوة كانت سرابي قد شابكت أصابع يديها وقرأت طُلسمًا كان من شأنه أن يُخرج حبالًا سوداء من الأرض تقيد أطرافه وتمنعه من الحركة.

كانت الحبال مُسننة بالأشواك؛ الأمر الذي جعل جسد عاصف يَنزف دمًا، وبالرغم من ذلك لم يكن هذا الأمر هو ما جعله يشعر بالألم.

كان ما جعله يشعر بالألم هو: أن ذلك الوجع قد أتاه من الشخص الوحيد الذي كان مستعدًّا لأن يقيم لأجله حربًا ضد العالم لو أن أحدًا من العالم تسبب له بشيء من الأذى.

التفتت سرابي نحوه،

كان يبدو مثيرًا للشفقة كأسد فقد أنيابه،

ورغم ذلك إلا أنها لم تتعاطف معه وواصلت سيرها نحو حصا
ن ذلك الأسد لا يعنيها .. وكأنه لم يكن يومًا بطل حكايتها وحامي
نها.

كان يُشبه والدته في طفولته،

ولكنه بات الآن يبدو أكبر من عمره الحقيقي؛

ذلك أن الحزن قد نحت له أعشاشًا في وجهه خلال السنوات
ماضية، فباتت ملامحه الحادة قِبلة تهاجر إليها كل طيور العالم
لحزينة.

اعتلت سرابي فوق متن حصانها،

وقالت له آخر ما كان يتمنى سماعه تلك اللحظة:

- انساني إلى الأبد يا عاصف.

ثم رحلت.

**

لم يمضِ وقت طويل حتى زال مفعول الطُّلسم،

متعلت الحبال السوداء عن أطرافه ولكنه لم يتحرك؛ فقد كان هنالك شيء آخر أكثر ثِقلًا يمنع جسده عن الحركة؛ إنها الأسئلة التي تكونت داخل عقله:

التفتت سرابي نحوه،

كان يبدو مثيرًا للشفقة كأسد فقد أنيابه،

ورغم ذلك إلا أنها لم تتعاطف معه وواصلت سيرها نحو حصانها وكأن ذلك الأسد لا يعنيها .. وكأنه لم يكن يومًا بطل حكايتها وحامي عرينها.

كان يُشبه والدته في طفولته،

ولكنه بات الآن يبدو أكبر من عمره الحقيقي؛

ذلك أن الحزن قد نحت له أعشاشًا في وجهه خلال السنوات الماضية، فباتت ملامحه الحادة قِبلة تهاجر إليها كل طيور العالم الحزينة.

اعتلت سرابي فوق متن حصانها،

وقالت له آخر ما كان يتمنى سماعه تلك اللحظة:

– انسَاني إلى الأبد يا عاصف.

ثم رحلت.

**

لم يمضِ وقت طويل حتى زال مفعول الطُلسم،

سقطت الحبال السوداء عن أطرافه ولكنه لم يتحرك؛ فقد كان هنالك شيء آخر أكثر ثِقلًا يمنع جسده عن الحركة؛ إنها الأسئلة التي تكونت داخل عقله:

" ترى ما الذي حدث لسرابي في ذلك الغياب الطويل وجعل منها فتاة أخرى ؟! .. تراها ما الذي كانت تعنيه حين قالت بأنها عائدة إلى المكان الذي باتت تنتمي إليه ؟!

ما هو سر قوتها الهائلة ؟!

ما هو سر الوشوم التي ظهرت فوق حاجبها الأيسر ؟!

من هُما الفارسان المُلثمان اللذان كانا معها ؟!

والأهم من كل هذا هو:

ما الذي يجب عليه أن يفعله لكي يستعيدها ؟! "

وربما بسبب انشغاله بتلك الأسئلة لم ينتبه للخطر الذي كان متجهًا نحوه؛ فقد أصابته ضربة سُددت له ببراعة وقوة في الجزء الخلفي من رأسه جعلته يسقط مكانه ساكنًا.

قال صاحب الضربة وهو ينحني لتفقده:

- لقد غُشي عليه - وأضاف وهو ينظر نحو الخلف:

- أتعتقد أن الأمر سوف ينجح يا ذِمار ؟!

قال ذِمار:

- في الظروف العادية كنت سأقول لا؛ فعاصف كما تعلم يملك رأس حمار عنيد .. ولكن بعد الحقيقة التي سوف تُطلعه عليها أراهنك أن سوف يقبل يا جلالة الملك.

وأضاف بنبرة تطمح لشيء عظيم:

- لو سار كل شيء حسب الخطة؛ أضمن لك أننا نستطيع كسر ميثاق (السّفك) يا سيدي.

كان ذلك الأمر (كسر ميثاق السّفك) هو أحد الأحلام الكبيرة لملوك الأرض القديمة؛ وعاصف الآن هو الوحيد الذي يستطيع أن يضمن لطاغين تحقيق ذلك الحلم.

نظر طاغين أرضًا - نحو الجسد الممدد - وقال متسائلًا:

- والآن ماذا نفعل به ؟

- نحمله إلى زنزانة القصر يا سيدي، وهناك نعرض عليه الأمر.

حملاه من هناك واتجها به نحو القصر، ولا أحد منهما قد انتبه إلى أن هنالك شخصًا ما .. كان من البعيد يراقب كل شيء بعينيه السوداء والأشبه بحجر مقدس.

في الحقيقة كان غيَاث يُعد واحدًا من أثرى رجال منطقته،

حصل على أمواله الطائلة تلك بسبب السنين التي قضاها يعمل في البلاط الملكي .. قبل أن يذهب إلى المَلك يومًا ويطلب منه هذا الطلب الخاص:

- أريد التنحي عن منصب ظِل التنين.

ظِل التنين هو اللقب الذي يُطلق على الحارس الشخصي لملك ممالك التنين.

قطب حينها الملك يمّان حاجبيه الكثيفين،

وبدا تائهًا كالذي يستمع إلى لغة غريبة لا يفهم معاني كلماتها:

- لماذا ؟!

- لقد بدأت أتقدم في العمر كما ترى، وأخشى ألّا أكون قادرًا على حمايتك بالشكل المطلوب.

صمت الملك لبُرهة وقد بدا أنه لم يقتنع بالجواب، ثم نهض من فوق عرشه وسار نحو غيَاث وطرف وشاحه الطويل يزحف فوق بلاط القصر العتيق المنحوت من أحجار البراكين السوداء:

- وإن كنتَ طريحًا على فراش الموت يا غيَاث فستظل واحدًا من أقوى فرسان الممالك .. لذلك عندما تريد أن تكذب يجب أن تفكر بحجة أكثر إقناعًا من هذه.

صمت غيّاث؛

فكان صمته ذاك دليلًا على انكشاف كذبته.

وضع الملك العجوز يده الكبيرة على كتفه وقال:

- تعلم أني أَعُدُّك واحدًا من أفراد العائلة؛ لذلك تستطيع أن تخبرني بالحقيقة دون مراوغة.

- لقد أفنيتُ الكثير من السنوات في شرف خدمتك يا جلالة الملك، وكنت قد عزمتُ ألّا أتنحى عن كوني ظلًّا للتنين حتى تموت أنت أو تغادر روحي من جسدها.

- وما الذي اختلف الآن ؟

لم يكن غيّاث واثقًا من مدى تقبل الملك لإجابته القادمة، وبالرغم من ذلك قال:

- لقد باتت لديَّ الآن ملكة أخرى بحاجة إلى ظِل يقف خلفها.

ضحك الملك من ذلك الرد .. وعاد يجلس فوق عرشه المهيب المصنوع هيكله من عِظام التنين، قال وقد أصبح الجو ألطف مما كان عليه قبل قليل:

- فالأمر متعلق بابنتك نورس إذًا.

كان الملك يحمل حُبًا خاصًا لغيَاث ولأجل ذلك وافق على طلبه
كما قرر أيضًا أن يُجزل له الكثير من الأموال ليتأكد بأنه لن يحتاج
لأحد بعده.

**

كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها غيَاث تسمح له بأن
يعيش ترف حياة الأثرياء: فيأكل اللحم الطازج كل يوم، ويشرب أجود
أنواع النبيذ متى شاء، يُصادق النُبلاء نهارًا ويُنادم ليلًا أجمل الفتيات
الحِسان.

ولكنه لم يكن يجد متعته هناك،

بل كان يجدها في أشياء أخرى قد تبدو بسيطة للآخرين ولكنها تعني
له الكثير:

فهو يُحب أن يأكل من الطعام الذي يصطاده بنفسه،

ولم يكن يروي عطشه غير الحليب الذي يحلبه بيديه من ضروع
ماشيته .. أما عن الصُحبة: فكان يُفضل أن يقضي معظم وقته برفقة
ابنته نورس وكلبه الوفي رعد

في الخلف - وعلى امتداد الشاطئ الطويل - كان كلٌ من نورس ورعد يستعدان لبدء لعبتهما المفضلة (القِتال حتى الموت) .. فوقف كل واحدٍ منهما داخل حلبة مصارعة مربعة مرسومة بخط الإصبع فوق رمال الشاطئ.

احنت نورس رأسها احترامًا لخصمها، وكذلك بادلها رعد التحية ثم ابتدأ القتال بينهما: حيث هجمت الفتاة الصغيرة بكامل قوتها نحو الكلب الأسود الضخم وقد نجحت في اعتلاء ظهره فأصبحت تملك الأفضلية في القِتال.

ولكن ذلك الأمر لم يدم طويلًا

حيث قام رعد بحركة رشيقة بإطاحتها من فوق ظهره،

ثم هجم عليها دون أن يُعطيها فرصة للنهوض وقد قام بتثبيتها على الأرض مستخدمًا مخالبه .. اقترب منها أكثر ثم أخرج لسانه الطويل وبدأ يلعق وجهها

انخرطت نورس كعادتها في نوبة ضحك هستيرية،

ولم يتوقف رعد عن ذلك إلا حين صاحت وهي تغالب ضحكاتها:

- حسنًا، حسنًا .. أستسلم .. أنا أستسلم !!

قفز رعد من فوقها وأخذ ينبح بصوت عالٍ وهو يسير بخطوات متفاخرة داخل حدود حلبة المصارعة .. كما لو أنه أسد وهنالك جمهور وهمي يصفق له ويحييه

واستمر ينبح بصوت عالٍ حتى جاءته هذه الصرخة: سوف تخيف الأسماك بصوت نُباحك أيها الأحمق، وحينها لن نجد غيرك لنأكله على غداء اليوم !!

صمت رعد خوفًا وأخرج لسانه الطويل من خلف ظهر سيده غيّاث وكأنه بذلك يسخر منه .. وضعت نورس يدها على فمها وهي تضحك حتى لا تفضح بصوت ضحكاتها تمرد صديقها، قالت بعد قليل وهي تنهض:

- لننتقل إلى الجهة الخلفية من الجزيرة؛ كي لا نُزعج أبانا.



الجهة الخلفية من الجزيرة

كانت نورس ثرثارة بطبيعتها: حتى أن رعد كان يُغلق أُذنيه أحيانًا لفرط ما كانت ثرثرتها المتواصلة تُصدع رأسه، ولكنه الآن يلاحظ عليها أمرًا غريبًا حيث أنها كانت تميل إلى صمت غريب وهي تحدق نحو البحر الهادئ أمامها.

وهذا ما يجعله يشد بأسنانه طرف ثوبها،

التفتت إليه نورس، قالت وقد فهمت ما كان يريد قوله:

- لستُ حزينة ولكنني أفكر في لحلم غامض راودني ليلة البارحة، لقد رأيتُ جنودًا يُلاحقون امرأة كانت تحملني بين ذراعيها وأنا طفلة رضيعة، وعندما سدَّ البحر طريق تلك المرأة وضعتني في جوف قارب خشبي ثم دفعت بالقارب بعيدًا.

وأضافت تروي مزيدًا من التفاصيل حول ذلك الحُلم:

- كان بقائي على متن القارب مُخيفًا للغاية يا رعد .. ولكنني عندما كنت أنظر نحو السماء كنت أشاهد رجلين ينظران نحوي .. كانت نظراتهما تبعث على الطمأنينة كما لو أنهما بتلك النظرات كانا يحرسانني من أي خطر قد يتهددني وأنا وحيدة

توقفت نورس عن رواية الحُلم ثم رفعت رأسها وكأنها تبحث في السماء عن ذينك الرجلين اللذين رأتهما في المنام .. هما لم يُخبراها عن أسمائهما لكنها تذكر ملامحهما جيدًا:

الأول كانت له ملامح وجه حادة كأنه استعارها من نسر، أما الآخر فكان رجلًا أسود البشرة يبدو كغول وسيم، يملك أسنانًا ناصعة البياض بينها سنة واحدة ذهبية.

لم يفهم الكلب رعد كلام صديقته بالطبع .. لكنه أحس على نحو ما بالشرود الذي يعتريها؛ وهذا ما جعله ينهض من مكانه ويبدأ بالطواف والتقافز حولها.

نهضت نورس وقد فهمت رغبته في اللعب؛ فأخرجت من حقيبتها قوسًا وسهمًا .. كان السهم قد عُقد عند نهايته بدمية مصنوعة من القش والخشب وقالت:

- أأنت مستعد يا رعد ؟

هزَّ رعد ذيله واتخذ وضعية الاستعداد،

وضعت نورس السهم على الخيط - خيط الإطلاق - ثم شدته إلى الخلف بكل ما تستطيع من قوة .. وحين بات السهم جاهزًا للإطلاق أفلتته من يدها..

كان الهواء ذلك الصباح شديدًا،

وقد استطاع أن يحرف السهم عن مساره ويُسقطه في البحر، وبالرغم من ذلك لم يتوقف رعد عن ملاحقة الدمية بل ولج إلى الماء وجعل يسبح بشغف نحوها

ظلّت نورس تراقب ذلك المشهد والابتسامة تعلو وجهها

ولكن الابتسامة لم تدم طويلًا؛ إذ إنها فجأة - ودون سابق إنذار - أحست بوخزة غامضة في قلبها تُنبئها بخطر وشيك الوقوع؛ الأمر الذي دفعها لأن ترفع صوتها بالنداء قائلة:

- رعد ! !

التفت الكلب إليها، فقالت:

- عُد إلى هنا يا رعد، عُد إلى هنا فورًا ! !

نبح رعد وهو ما يزال يواصل السباحة متجهًا نحو هدفه، فقالت وقد فهمت قصده:

- لا عليك؛ سنطلب من أبانا أن يصنع لنا دمية غيرها

وأضافت وهي تضع يديها عند فمها لتتأكد من أن صوتها سيصل إليه:

- عُد الآن ! !

استدار رعد حول نفسه وبدأ يجدف عائدًا نحو الشاطئ والابتسامة على وجهه، ولكنه ما كاد أن يقطع مسافة قصيرة حتى ظهرت خلفه زعنفة مرعبة.

استطاعت نورس أن تلحظ تلك الزعنفة؛

فحاولت أن تصرخ لتحذره ولكن شديد الخوف أخرسها.

ورغم أن الكلب لم ينتبه لشيء إلا أنه أحس غريزيًا بالخطر فزاد من سرعة تجديفه.

**

اختفت الزعنفة فجأة كما ظهرت فجأة،

وطال اختفاؤها أسفل الماء حتى خُيل إلى نورس أن الخطر قد زال،

لكن قلبها أخبرها بأن ذلك الاختفاء لا يعدو كونه أكثر مما يُسمى بالهدوء ما قبل العاصفة.

تمنّت الفتاة الصغيرة أن يكون قلبها مخطئًا في ظنّه،

لكنها سرعان ما تأكدت بأن قلبها كان محقًّا: فما هي إلا لحظات يسيرة حتى خرج من أسفل الماء شيء ما - شيء خطير - اعترض طريق كلبها رعد

**

كان الشيء الذي خرج منَ الماء عبارة عن:

وحش أسود عملاق له حراشف خشنة كأنها جلد تمساح عجوز، وكان له فكٌّ مرعب يستطيع بواسطته طحن زورق خشبي يتسع لثلاثة أشخاص.

كان ذلك الوحش ينتمي لطائفة - وحوش الأعماق - ولا بد أن شديد الجوع هو ما جعله يصعد إلى سطح البحر مفتشًا عن وجبة يأكلها.

توقف رعد عن التجديف مستسلمًا وراح جسده يرجف لشدة الخوف، أرخى أذنيه وأطلق نبحة مكتومة يعبر بها عن مدى خوفه وقِلة حيلته.

••

في تلك اللحظة حدث شيء غريب لنورس، لقد تبدل خوفها إلى غضب - غضب زلزل أعمق نقطة بداخلها - وأحست كما لو أن حُممًا من البركان تجري مع الدم في مجرى عروقها، صوّبت نظرها نحو وحش البحر وصاحت:

- إياك، إياك أن تؤذي أخي ! ! !

وصلت تلك الصيحة إلى غيّاث - الجالس فوق الصخرة - وما أن سمعها حتى أدرك أن هنالك شيئًا جادًّا يحدث في الجهة الخلفية من الجزيرة، فاختفى من مكانه وظهر بعد لحظة فوق تلة عالية تكشف المشهد بأكمله وقد استطاع منذ النظرة الأولى أن يستوعب حجم الخطر الذي يُهدد كلبه.

كان غيّاث يستطيع التدخل وإيقاف الوحش عند حده ولكنه تمهل قليلًا؛ إذ إنه شاهد شيئًا عجيبًا يحدث:

لقد تحولت عين نورس اليُسرى للون أحمر كالدم،

وكانت هنالك طاقة غريبة بدأت

تتشكل بين يديها

وفي الحقيقة:

كان الوحش يستطيع - خلال الوقت الماضي - أن يلتهم وجبته السهلة ويعود أدراجه إلى ظُلمة الأعماق لكنه ظلَّ ثابتًا مكانه دون حراك؛ ذلك أنها - أن نورس - ومن خلال النظر إليه فقط كانت ودون أن تعلم تُقيد أطرافه وتمنعه الحركة.

واصلت الطاقة الغريبة التشكل بين يدي نورس

وظلت تكبر بين يديها وتكبر حتى استحالت إلى ما يُشبه الشمس الصغيرة

ثم أطلقتها نحو الوحش بقوة

إندفعت الطاقة بسرعة مذهلة شاقة البحر إلى نصفين حتى أصابت الوحش وعبرت من الناحية الأخرى لجسده مُخلفة في عُنقه ما يُشبه فتحة النفق.

سقط الوحش صريعًا لفوره وتهاوت جثته إلى الأعماق



لم تدرك نورس حجم القوة الهائلة التي استخدمتها ضد الوحش لتوها، ولم يخطر ببالها أن تتساءل عن السر الذي جعلها تملك كل ذلك القدر من الطاقة بداخلها.

كان يهمها أمر واحد فقط تلك اللحظة:

- أن ترى رعد - الكلب الذي تعده أخًا لها - يجدف بسلام عائدًا نحو الشاطئ.

ابتسمت نورس لرؤيته بخير،

ثم راحت عيناها البُندقيتان تنغلقان بطريقة لا إرادية..

انهارت وسقطت أرضًا بعد أن أُرهق جسدها بسبب الجهد العالي وغير الطبيعي الذي بذلته قبل قليل.

ابتسم وجهها البريء المدور مثل القمر وهي تستشعر لسان كلبها الرطب الطويل يُداعب وجهها البارد .. ظلّت أنفاس نورس تتردد قليلًا قبل أن تتوقف بشكل كامل .. استمر قلبها بعد ذلك بالنبض للحظات يسيرة

ثم

توقف

توقف قلبها مُعلنًا بذلك موتها

٢

عِزرا

حمل غيَاث جثتها إلى المنزل،

مددها فوق السرير وأسدل اللحاف على جسدها الهامد

لقد خاض في حياته الكثير من المعارك، ولكنها كانت المعركة الأهم في حياته؛ لذلك لم يكن بوسعه مهما كلف الثمن أن يخسرها.

وهذا ما دفعه لأن يلجأ إلى آخر حل كان يتوقع أن يلجأ إليه يومًا؛ فسحب من خزانته خنجرًا قام بواسطته بخلق جُرح بسيط في راحة كفه اليسرى، ثم كتب بدمه شيئًا ما على رقعة الجلد.

كان ذلك الشيء الذي كتبه غيَاث عبارة عن جملة مكوّنة من ثلاث كلمات فقط، وقد كانت الكلمات الثلاث تلك هي أخطر ما يُمكن للمرء أن يكتبه على نفسه.

**

طوى غيَاث رقعة الجلد،

ومدها نحو الكلب الذي أطبق عليها بين أسنانه وقال:

- اذهب إلى عِزرا وأعطها هذه الرسالة.

بدا الخوف واضحًا على ملامح الكلب الأسود لكنه لم يتردد وانطلق نحو سلسلة جبال إيل حيث تقطن تلك المرأة التي اسمها عِزرا، والتي يُطلق عليها أيضًا لقب:

سيدة البرزخ.

٣

سلسلة جبال إيل

استغرقته الرحلة وقتًا طويلًا حتى وصل

كانت البوابة - بوابة سلسلة جبال إيل - عبارة عن صخور منحوتة على هيئة سلالم تؤدي إلى الداخل، وقد كان مكتوبًا على أول ثلاث صخرات منها هذه العبارة التحذيرية:

توقف

لا تعبر من هنا

سوف يتبعك الموت إن عبرت.

لم يكن رعد يجيد القراءة بطبيعة الحال،

ولكنه كان يعلم المصير الذي ينتظره بالداخل، ورغم ذلك لم يفكر بالتراجع، بل عضَّ بأسنانه على رقعة الجلد بقوة أكبر وانطلق يركض نحو الأمام.

وبالرغم من أصوات العذابات التي كان يستمع إليها أثناء الصعود، والأشباح التي تعترضه طوال الطريق .. إلا أنه لم يتوقف وظل يركض بكل عزم حتى وصل إلى المكان المنشود:

(الكهف الذي تسكنه عِزرا)

**

كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يُلقي برقعة الجلد عند مدخل الكهف ويغادر.

ولكنه ما كاد أن يتقدم خطوتين نحو الكهف،

حتى امتدت إليه من الهواء يد غاشمة

وأسقطته قتيلًا

٤

المنزل
" غيَاث ونورس "

كان غيَاث يُدرك أنه قد أرسل كلبه إلى الموت حين طلب منه الذهاب إلى هناك؛ فتلك المنطقة لا يُسمح لأحد غير الملك يَمان ونفر قليل من أفراد عائلته بالدخول إليها ولكنه كان يراهن على الكلمات الثلاث التي كتبها بدمه على الرقعة.

**

طال وقت الانتظار ولم يأته الجواب،

وهذا ما دفع الكثير من مياه القلق للتسرب إلى قلبه حتى كاد أن يغرق في القاع - قاع اليأس - لولا أن سمع أخيرًا طرقًا على باب منزله فتجدد بداخله الأمل.

كان الطارق امرأة بدت أنها قادمة من عالم الموت،

أصلها إنسيٌّ ولكنها لا تملك جسدًا كما بني الإنس؛ فقد كان جسدها يخلو من الجلد والأعضاء الداخلية حيث يتكون فقط من هيكل عظمي أسود اللون تستره بأقمشة واسعة.

رفعت سيدة البرزخ طرف ثوبها فخرج منه الكلب رعد الذي هرول إلى داخل المنزل صاعدًا درجات السلم متجهًا إلى الطابق الثاني حيث ترقد جثة نورس.

قالت سيدة البرزخ:

- لم يُعرف أبدًا أن كائنًا غير هذا الكلب قد ولج سلسلة جبال الجل وعاد منها حيًّا.

لقد حدث مع كلبه كما توقع:

فبعد أن قامت سيدة البرزخ بقتل رعد أخذت الرسالة التي سقطت من بين أسنانه .. وما أن قرأت الكلمات الثلاث المكتوبة فيها حتى أدركت أنها وقعت على كنز ثمين فاستخدمت قدراتها الخاصة لجعل الكلب ينهض من موته.

قالت سيدة البرزخ:

- أرجو أن يستحق طلبك كل هذه التضحية التي تقدمها.

استدار غيَاث، ثم قال وهو يدلف إلى منزله:

- اتبعيني.

**

في الطابق الثاني من المنزل:

أزال غيَاث اللحاف عن جسد ابنته الميتة ثم التفت نحو عِزرا التي فهمت من تلقاء نفسها الأمر المطلوب منها تنفيذه.

قالت تسأله:

- أريد أن أعرف السبب.

- لقد دفعت لكِ المقابل، أما السبب فهذا ليس من شأنك.

- لن أغوص إلى عالم البرزخ لأفتش عن روح تائهة لا أعرف عنها شيئًا.

وأضافت توضح له أمرًا:

- الوقت في مثل هذه الحالات عامل مهم جدًّا؛ فإذا كنت تريد لابنتك أن تعود فعليك أن تجيب عن سؤالي بسرعة.

إن الجروح تُبعث من قبورها عند الحديث عنها؛

لذلك لم يكن يحب الحديث عن ماضيه ولكن إن كانت سيدة البرزخ تطلب منه هذا الشيء كثمن إضافي مقابل الخدمة التي سوف تقدمها إليه فإنه لن يتأخر في دفعه لها:

- ما الذي تريدين أن تعرفيه يا عِزرا ؟!

رفعت سيدة البرزخ قطعة الجلد،

وقد كان مكتوبًا عليها بالدم هذه الكلمات الثلاث:

" أنا أتعهد بتنفيذه "

وهذا يعني أنه يحق لحامل قطعة الجلد تلك أن يكتب عليها أي طلب يريده، وعلى غيَاث أن يُحقق له ذلك الطلب مهما كان مستحيلاً؛ فقد كتب على نفسه مسبقًا بخط دمه أنه يتعهد بالتنفيذ.

قالت سيدة البرزخ:

- أريد أن أعرف السر الذي يدفعك إلى تقديم كل هذه التضحية من أجل فتاة ليست ابنتك الحقيقية ؟

٤

المنزل

"غيَاث ونورس"

كان غيَاث يُدرك أنه قد أرسل كلبه إلى الموت حين طلب منه الذهاب إلى هناك؛ فتلك المنطقة لا يُسمح لأحد غير الملك يَمان ونفر قليل من أفراد عائلته بالدخول إليها ولكنه كان يراهن على الكلمات الثلاث التي كتبها بدمه على الرقعة.

**

طال وقت الانتظار ولم يأته الجواب،

وهذا ما دفع الكثير من مياه القلق للتسرب إلى قلبه حتى كاد أن يغرق في القاع - قاع اليأس - لولا أن سمع أخيرًا طرقًا على باب منزله فتجدد بداخله الأمل.

لم يشهد ذلك المنظر غير جرو أسود صغير قبض بأسنانه على ملابسها وحاول بكل قوته أن يُنقذها من الغرق ولكن ثيابها تمزقت بين أسنانه وسقطت الفتاة إلى قعر البحر، تراجع الجرو الأسود إلى الخلف بسبب قوة الدفع؛ ليرتطم وجهه في إحدى الصخور المسننة ويحصل بذلك على ندبة طولية متعرجة على امتداد عينه اليسرى تُشبه الخط المتعرج الذي يصاحب في السماء صوت الرعد.



بعد موتها - موت ريلان - ظل والدها يذهب كل صباح إلى البحر؛ ليعاتبه على تلك الحادثة كما لو أنه يعتقد أن البحر سوف يُصغي إليه يومًا ويعيد إليه ابنته الغارقة

وفي الحقيقة ؟!

لقد فعلها البحر حقًّا

حدث ذلك عندما التقى غيّاث ذات صباح بطفلة رضيعة مُلقاة داخل قارب يرسو على الشاطئ، فأخذ الطفلة من القارب وأطلق عليها اسم نورس وقد قرر أن يعتني بها كما لو أن البحر فعلًا أعاد إليه ابنته الغارقة.

قال بعد أن انتهى من سرد السر:

- أرجوكِ يا عزرا؛ أنتِ الأمل الوحيد الآن.

كانت عِزرا واحدة من أصل سبعة أسياد يُسمح لهم بدخول البرزخ، حيث المكان الذي تهاجر إليه الأرواح المفارقة بعد انفصالها عن الجسد لتمكث فيه بعض الوقت قبل رحيلها نحو مستقرها الأخير الذي لا أحد غير الرب يعرف عنه شيئًا:

- اعيديها أرجوكِ.

أرسلت عِزرا نظرها من خلال النافذة لتشاهد ضوء الشمس وتمدد الظلال:

- لقد مرَّ وقت طويل على دخولها يا غيّاث

- ماذا يعني ؟!

- بعد موت الأجساد تهاجر الأرواح إلى البرزخ .. يستطيع الأسياد السبعة العثور على الأرواح الجديدة هناك ولكن بشرط ألّا يكون قد مضى على دخولها وقت طويل

- ألا تستطيعين أخذي بدلًا عنها ؟!

- الموت لا يقبل المقايضات؛ إنه يختار ضحاياه بنفسه.

- ما الحل ؟!

- الزمن سيجعلك تنساها

- لا طاقة للزمن على محو هذه الذكرى.

صمتت سيدة البرزخ وحدقت إليه بذهول وكأن تلك الجملة التي قالها: (لا طاقة للزمن على محو هذه الذكرى) قد مسّت شيئًا دفينًا فيها.

عاد يلح عليها:

- ألا توجد طريقة أخرى ؟!

- توجد ولكنها غير مضمونة

- حاولي.

قالت تحذره وهي ترفع رقعة الجلد في وجهه:

- حسنًا، ولكن إذا لم استطع اعادة ابنتك إليك؛ فإن هذا الاتفاق لن يسقط.

- لا بأس، الأمر يستحق المجازفة.

طوت رقعة الجلد ثم قرأت بينها وبين نفسها كلمات تُدعى بالتعويذة السامانية، ففتحت لها في الفراغ بوابة حديدية تُفضي الى ما يُشبه بحرًا أسود غامض، قالت قبل أن تلج ذلك المكان:

إذا غابت الشمس ولم تعد ابنتك؛ فاعلم أنها لن تعود أبدًا.

الطوفان

انحنى غيّاث ووضع جبينه على يد ابنته الباردة ومكث ينتظر بكثير من التوجس والقلق.

لقد خاض ذلك الفارس الكثير من الصّعاب طوال عمره،

كاد أن يفقد حياته في نزالات عديدة .. تشهد له ساحات المعارك بالشجاعة والدهاء، لقد جرب كل شيء إلا الخوف؛ ذلك أنه ما جرب الحب ليخاف.

لكنه اليوم وهو ينظر نحو ابنته - أحب الأشياء إلى قلبه - أحس لأول مرة بطعم الخوف.

طال وقت الانتظار كثيرًا،

حتى أوشكت شمس النهار على الغروب،

وبينما هو ما يزال يضع جبينه على اليد الباردة إذ أحس فيها بحركة خفيفة.

رفع رأسه ونظر إلى وجه ابنته فرآه وقد بدأ يستعيد لونه الطبيعي، وضع أذنه على صدرها فسمع - أجمل - معزوفة يسمعها في حياته كلها:

لقد عاد قلبها ينبض

سقطت دموع فرحه،

فتحت الابنة عينيها؛ وما أن فعلت ذلك حتى نهض من أمامها وغادر؛ فالدموع هي السر الذي يحرص الآباء طيلة حياتهم على إخفائه عن أبنائهم

**

هبط غيّاث إلى الطابق الأول ليجد عِزرا في انتظاره،

مسح دموعه التي بللت لحيته الرمادية الطويلة وقال يُعبر عن شديد امتنانه:

- شكرًا يا عِزرا

سألته:

- أكنت تعلم مسبقًا بشأن قوتها ؟!

- كنت قد لاحظت عليها بعض العلامات التي عرفتُ من خلالها بأن لديها قوة خاصة؛ ولكنني لم أتوقع أن تظهر قوتها بتلك الطريقة المفاجئة عند الشاطئ.

- وما الذي تنوي أن تفعله ؟

- إنها متهورة؛ ولا شك بأن قوة مثل هذه سوف تُقحمها في مغامرات خطيرة.

- تفكر في شراب النسيان إذًا ؟!

- أريدها أن تنسى ما حدث؛ فلا تكتشف بأنها مختلفة.

- إذا كنت تحبها؛ فأنصحك بألَّا تفعل ذلك.

- لماذا ؟!

- لأنني رأيتُ شيئًا في البرزخ.

- ماذا رأيت ؟

لقد رأت عِزرا - بينما كانت تغوص في عالم البرزخ - شيئًا مهمًا يخص إحدى عائلات الجن العريقة: إنه يخص جومانا ابنة جبَّار كبير عائلة الأباطرة الملكية.

عِزرا لا تستطيع البوح له بما رأته في البرزخ ولكنها متأكدة بأن ذلك السِّر الخطير سوف يغير تاريخ الأرض إلى الأبد.

قالت:

- إذا كنت تحب ابنتك فعلًا فأنصحك بأن تُسارع في تدريبها منذ اليوم؛ لكي تكون مستعدة للدفاع عن نفسها عندما يبدأ طوفان الدماء بالجريان ويُغرق الأرض جميعها.

١

قصـــر مملكة أبابيل
عاصف وطاغين
" السجن "

استعاد عاصف وعيه ليجد نفسه محبوسًا في سجن القصر،

كانت العتمة تسود أرجاء المكان إلا من ضوء القمر الناعم المتسلل عبر قضبان النافذة.

كان ذهنه شاردًا؛

لذلك لم ينتبه للشخص الجالس بالقرب منه حتى نطق ذلك الشخص قائلًا:

- أظن أنه حان الوقت لنصبح صديقين.

ما أن انتبه على المتكلم حتى هجم عليه، قال وهو يطبق بيديه القويتين على عنقه:

- من سيُنقذك الآن مني يا طاغين ؟!!

كان طاغين يستطيع الدفاع عن نفسه تلك اللحظة؛ فهو يملك القوة الكافية للمهاجمة والدفاع وإلحاق الضرر بخصمه لكنه اكتفى بأن ابتسم وقال:

- لقد أمرتُ كل جنودي بالابتعاد عن السجن؛ فتستطيع أن تقتلني إذا أردت وتغادر من هُنا بسلام.

ثم صمت لبعض الوقت قبل أن يُردف قائلًا:

- ولكنني أعلم بأنك لن تفعل شيئًا سيئًا لصديقك المستقبلي.

أدرك عاصف تلك اللحظة - بعد أن هدأ عقله قليلًا - أن هنالك شيئًا غريبًا يحدث:

(لقد كان هو وطاغين يقبعان في سجن واحد)

وعندما التفت حول نفسه أدرك أن السجنَ يخلو تمامًا من الحراس وهذا سلوك لا يفعله طاغين؛ فهو يحرص دائمًا على إحاطة نفسه بكل ما يلزم من احتياطات أمنية تجعل من إلحاق الضرر به مهمة شبه مستحيلة.

- لماذا أنت واثق إلى هذا الحد من أنني لن أقتلك ؟!

- لأنك لن تعرف الحقيقة إن قتلتني.

- أي حقيقة ؟

- حقيقة ما حدث لزوجتك، والطريق إلى الوصول إليها.

ما أن سمع ذلك حتى ارتخت يداه بطريقة لا شعورية من حول عنق طاغين وقال:

- ما الذي تعرفه ؟

- أعرف أنني أستطيع مساعدتك

وأضاف طاغين وضوء القمر يكشف ابتسامته الخبيثة:

- أنا الوحيد الذي يستطيع أن يُعيد إليك زوجتك سرابي.

أخذ عاصف يتأمل عينَي طاغين في ظلام السجن وكأنه يبحث فيهما عن شيء مفقود.

- لماذا تنظر إليَّ هكذا ؟!

- أحاول أن أعرف أي مكيدة جديدة تدبرها لي.

- إننا نكيد لمن لا نقدر عليهم، أما أنت فقد قدرنا عليك.

كان محقًّا في كلامه؛ فعاصف الآن في قبضته تمامًا وبالتالي فإنه ليس بحاجة لأن يدبر له المكائد والكمائن.

- ما الذي تعرفه ؟

- اجلس أولًا؛ فلا أعتقد أن ركبتيك ستُطيقان حملك بعد أن أخبرك بما أعرف.

جلس عاصف فوق المقعد اللصيق بحائط السجن،

وأخذ يُصغي إلى الكلام الذي بدأ طاغين يقوله له .. ومع مرور الدقائق اليسيرة .. كان ضوء القمر يكشف علامات الدهشة والقلق والخوف التي تظهر بانتظام على وجه عاصف ابن بحر وهو يُصغي إلى ذلك الكلام

الكلام الذي يكشف الحقيقة المرعبة

التي آلت إليها سرابي.

٢

مزامير آل سُليمان

أحس عاصف على نحو غريب بأن الكلام الذي قاله طاغين للتو كان حقيقيًا .. ورغم ذلك إلا أنه أراد دفعه - دفع الكلام - بعيدًا وعدم تصديقه:

- أنت تكذب؛ سرابي لا يمكن أن تفعل ذلك.

- أعرف أن الأمر ليس سهلًا، ولكنها الحقيقة.

- أنا لا أصدقك

- ربما لا تصدقني، ولكن الوشوم لا تكذب ؟

نعم إنه يذكر بأنه شاهد سلسلة من الحروف الغريبة التي ظهرت كالوشم فوق الحاجب الأيسر لعينها حين استخدمت قوتها الخاصة، قال متسائلًا:

- ماذا عنها ؟!

- إنها ترمز إلى القوة التي حصلت عليها زوجتك سرابي .. وتلك القوة لا يمكن الحصول عليها إلا من ذلك المكان الذي أخبرتك عنه قبل قليل.

أكمل طاغين:

- إذا كنت تريد استعادتها من هناك فعليك أن تُعلن الحرب .. وفي هذه الحرب لن تنتصر دون أن تكون جنديًا تقاتل تحت راية جيشي، وجيوش حلفائي من الممالك الأخرى

كان السؤال الذي يُحيره هو: إن كان طاغين محقًّا فيما قاله بخصوص سرابي، فلماذا يرغب بمساعدته ؟! .. لماذا يُقحم مملكته وحلفاءها في أتون حرب لا تعنيه ؟!

- وأنت ما مصلحتك من كل هذا ؟!

- فعل الخير.

صمت عاصف قليلًا قبل أن يقول: هل تعرف الحكيم ؟

- صديقك الفأر ؟! .. نعم ماذا عنه ؟!

- كم كنت أتمنى لو أنه كان هنا ليستمع إلى جوابك هذا؛ إنه الشخص الوحيد القادر على أن يرد عليك ببعض الكلمات المهذبة.

- ذلك الفأر لسانه طويل حقًّا.

رغم الظرف الصعب الذي كان يمر فيه إلا أنه ابتسم .. ابتسم لأنه تخيل الرد البذيء الذي كان الحكيم سيرد به على طاغين لو أنه كان هنا وسمعه يقول بأن لسانه طويل.

عاد عاصف يصر:

- أريد أن أعرف السبب الذي يدفعك لمساعدتي ؟!

طاغين يعلم أنه إذا أراد كسب ثقته فعليه أن يخبره بالحقيقة أو بنصفها على الأقل:

- ما يزال الكثير من أفراد الشعب يدينون لك ولعائلة الأباطرة بالولاء؛ إنهم ينظرون إليَّ بصفتي ملكًا غاصبًا للعرش، وأريد منك أن تسلمني الشرعية الملكية؛ فينتقل ولاء الشعب إليَّ.

إنه ثمن باهظ ذاك الذي يطلبه طاغين منه، ولا شك بأن عائلة الأباطرة سوف تغضب إن وافق عاصف عليه .. بل وربما يدفعهم الغضب لقتله.

مدَّ طاغين يده نحوه وقال:

- وافق يا عاصف وسوف أعيد إليك زوجتك.

أتجبره الحياة فعلًا على أن يلجأ لعدوه اللدود ؟! .. هل يوافق عاصف على أن يُصبح جنديًّا يحارب تحت راية الشخص الذي اغتصب عرشه وشرَّد عائلته ؟!

كان الأمر صعبًا للغاية،

ولكن ماذا سيفعل إن كانت هذه الطريقة الوحيدة لاستعادة زوجته ؟

قال:

- يجب أن أتأكد من صحة كلامك أولًا ثم أقرر.

أخرج طاغين من جيبه شيئًا مده نحو عاصف وقال:

- إنها أحد مزامير آل سليمان.

أخذ عاصف يتفحص ذلك الشيء بين يديه، وقد كان عبارة عن قصبة جوفاء مفتوحة الطرفين نُقش على سطحها الخشبي عبارة غريبة تقول:

إنه من سُليمان

وإنه بسم الله الرحمن الرحيم.

أكمل طاغين يقول:

- بهذا المزمار تستطيع الوصول إلى (أغاريب) فإذا وصلت إلى هناك فافعل مثل ما أخبرتك حتى تصل إلى سرابي وتتأكد من أمرها بنفسك وعندما تنتهي ستجدني في انتظارك.

وضع عاصف المزمار في جيبه،

ثم أراد النهوض عن المقعد الملاصق لحائط السجن للمغادرة غير أنه لم يستطع النهوض؛ فبعد الحقيقة التي استمع إليها للتو باتت ركبتاه لا تطيقان حمله.

وبينما هو عاجز عن النهوض إذ امتدت إليه يد طاغين، كان الغريب في الأمر هو أنه لم يرفض اليد الممدودة بل تنازل عن كبريائه واستند عليها ونهض.

قال طاغين بنبرة واثقة:

- لقد قلت لك بأننا سنصبح صديقين.

اتجه عاصف نحو بوابة السجن مغادرًا، كانت خطواته ثقيلة كسجين يسير إلى حبل المشنقة .. ورغم كثرة الأفكار برأسه إلا أنه لم ينسَ أن يرد قائلًا:

- أنا وأنت لن نصبح صديقين أبدًا.

ما أن أصبح عاصف خارج أسوار القصر حتى أخرج من جيبه شيئًا يُسمى (قطعة الاتجاه)[٥] .. وقد كانت عبارة عن رقعة جلدية سوداء مرسوم في منتصفها سِهام تشير إلى الجهات الأربع.

مددها عاصف أرضًا - مدد قطعة الاتجاه - ثم بللها ببعض قطرات من دمه كما قد علمته جدته العرّافة سِربيل أن يفعل من أجل أن يستدعي أصدقاءه.

تشرّبت القطعة قطرات الدم المتساقطة عليها،

ثم توهجت السِّهام التي تشير إلى الجهات الأربع باللون الأحمر

أخذ عاصف ينتظر قدوم أصدقائه .. دون أن يعرف شيئًا عن تلك العيون السوداء الغامضة كحجر مقدس والتي جعلت تراقبه منذ لحظة خروجه من القصر.

---

٥ قطعة الاتجاه (بحسب رواية المشاسة) هي رقعة جلد مسحورة، كانت العرّافة سربيل قد أعطتها لحفيدها عاصف حتى يستدعي بها أصدقاءه عند الحاجة.

٣

الشاب ذو اللثام الأسود
" مملكة النحاس "

رجل عجوز يركض وسط السوق، يلطم نفسه ويصرخ طالبًا النجدة؛ مما دفع رواد السوق للتجمهر والالتفاف حوله..

لم يقدم أحدًا منهم له يد المساعدة ليس لأنهم كانوا بلا نخوة أو شهامة؛ بل لأنهم لا يُجيدون التواصل بلغة البُكم؛ الأمر الذي حدا بأحدهم أن يقول مقترحًا:

- لنأخذ هذا العجوز المسكين إلى الملك علّه يُنيله مُراده.

**

في تلك الأثناء كان الملك أديم - ملك مملكة النحاس - كعادته يقوم بجولة تفقدية في الأرجاء برفقة موكب ضخم من حراسه الأقوياء.

قام رواد السوق بحمل الأبكم إلى حيث الموكب الملكي،

وهناك حاول الملك أديم جاهدًا فهم مراد الأبكم العجوز ولكن دون فائدة.

وبينما المحاولات لا تزال جارية إذ ظهر شاب يُخفي ملامحه خلف لثمة سوداء، ويُعلق على ظهره سيفًا - يشبه سيوف الساموراي - يكاد لفرط طوله أن يُلامس الأرض، كان الشاب ذا هيبة طاغية مما دفع الجميع تلقائيًا إلى أن يَفسحوا له المجال للعبور.

وصل الشاب ذو اللثام إلى حيث الملك وقال يستأذنه:

- إن سمحت لي أيها الملك، فإني قادر على فهم ما يريده الأبكم.

بدت هيأت الشاب ذو اللثام الأسود متناسقة وتكشف عن مُقاتل خطير؛ الأمر الذي دفع كبير الحرس إلى أن يهمس في أُذن الملك قائلًا:

- أنا لست مرتاحًا لهذا الشاب، دعني أقبض عليه، أو آمره بالانصراف.

كان الملك يعلم أنه مهما بلغ ذلك الشاب من القوة إلا أنه لن يكون خطيرًا مع وجود كل أولئك الحرس من حوله؛ وهذا ما دفعه إلى تجاهل النصيحة الأمنية:

- أخبرنا عما يريده الأبكم أيها الشاب.

وضع الشاب يده عند موضع قلب العجوز الأبكم وأخذ يُنصت لصوت نبضات قلبه وكأن له - لذلك الشاب - القدرة على فهم أحاديث القلوب.

أزال الشاب يده من فوق موضع القلب، ثم قام باليد ذاتها وبسرعة خاطفة بسحب سيفه الطويل المعلّق على ظهره وطعن به صدر العجوز الأبكم.

تعالت صيحات المتجمهرين حين شاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وبدؤوا يطالبون بقتل الشاب جزاءً لفعلته؛ صاح الملك أديم بأمر حراسه:

- اقبضوا عليه ! ! !

كان الشاب يملك الوقت والمهارة الكافيين للهرب لكنه لم يفعل.

بل أعاد سيفه الطويل خلف ظهره وظل واقفًا مكانه

هجم الحراس عليه،

إلا أن أحدًا منهم لم يستطع فعل شيء له؛

لقد كانت هُنالك هالة شفافة تحيط به مثل الدرع تمنع الحراس من الوصول إليه.

أدرك الكبير - كبير الحرس - أنه بصدد مواجهة مُقاتل غير اعتيادي؛ وهذا ما جعله يأمر عُصبة من أقوى حراسه بخلق حصنٍ دفاعي حول الملك تحسبًا للخطر

قال الشاب يشرح سبب فعلته تلك:

- هذا الأبكم كان فخًا قد نُصب لك أيها الملك.

كان المتجمهرون ما يزالون يطالبون بقتله .. والحرّاس يحاولون اختراق هالته القوية .. لم يبدُ أن أحدًا اقتنع بكلامه؛ لذلك كان عليه أن يأتي بالدليل

تقدم الشاب ذو اللثام الأسود نحو جثة الأبكم،

وأخرج من جيبه زجاجة تحوي مادة سائلة زرقاء تعرف باسم:

دموع النجم الأزرق وتستخدم من أجل إبطال مفعول تعاويذ التحول.

سكب منها الشاب بعضَ القطرات على جثة الأبكم فحدث شيء غريب ما أن شاهده المتجمهرون حتى صمتوا واحتاجوا لبعض الوقت حتى يصدقوا ما يشاهدونه

وكان هذا ما حدث بالضبط:

" لقد تحولت جثة الأبكم،

وعادت لهيئتها الأصلية: جثة غول أسود قبيح المنظر "



قال الشاب ذو اللثام الأسود يشرح الأمر:

ـ كان هذا الغول المتشكل بهيئة إنسان ينتظر الفرصة المناسبة لقتلك يا جلالة الملك.

ثم التفت إلى من حوله وقال: ولكن الخطر لم ينتهِ بعد؛ فهذا الغول كان مجرد أداة إلهاء فقط .. أما الخطر الحقيقي فإنه يكمن في ما هو قادم إليكم.

نجحت كلماته تلك في إخراج الملك عن صمته:

- ماذا تقصد ؟

- قبائل الغيلان قادمة.

ما أن سمعوا ذلك حتى بان عليهم الخوف،

وبدأت النساء بالنحيب والبكاء وتعالت صرخات الأطفال؛ لقد سكنهم الرعب والجزع؛ فهم يدركون القوة الوحشية التي تتمتع بها تلك المخلوقات الملعونة

كانت تُعد الساحة العامة للمدينة منطقة مكشوفة؛ مما قد يعرض حياة الملك أديم للخطر عند هجوم الغيلان؛ وهذا ما دفع كبير الحرس لأن يقول:

- يجب أن نعود إلى القصر فورًا يا جلالة الملك.

**

قصر مملكة النحاس

قاعة المداولة

عقد الملك أديم حال وصوله إلى القصر اجتماعًا طارئًا حضره جمع من أهم قادات الجيش؛ في محاولة لإيجاد حل من شأنه أن ينقذ المملكة وأرواح سكانها.

لم يكن لديهم الكثير ليفعلوه؛ فالمعلومة جاءت متأخرة مما يجعلهم غير قادرين على الاستعانة بالحلفاء للدفاع عن أرضهم .. وبات أقصى ما يستطيعون فعله في الوقت الراهن فقط هو اتخاذ بعض التدابير التي قد تُساهم في تخفيف الخسائر قليلًا.

وقبل أن ينتهي الاجتماع وينهض كل إلى عمله ظهر في قاعة المداولة شخص ما.

كان ظهوره المفاجئ هو ما جعل قادات الجيش يهبون استعدادًا لمقاتلته ولكن الملك أمرهم بالتروي؛ فقد كان ذلك الشخص هو ذاته الشاب ذا اللثام الأسود.

تقدم الشاب حتى وقف على شُرفة القاعة المطلة على باحة القصر وقال:

- نستطيع مساعدتكم على ردع قبائل الغيلان.

لقد تحدث بصيغة الجمع؛

الأمر الذي جعل الملك ومعه ثُلة من القادة يتجهون مباشرة نحو الشُرفة لينظروا من خلالها إلى الجيش الذي - خُيل إليهم - بأن الشاب يقصده.

فلم يجدوا أمامهم في باحة القصر غير شخصين فقط: الأول كان شابًا قوي البُنية له ملامح تشبه ملامح الذئاب، بينما الآخر كان طائرًا ضخمًا أحمر اللون ينتمي لسلالة العنقاء.

قال الملك:

- أين الجيش ؟

- نحن الثلاثة هو كل ما تحتاجه هذه المملكة لتكون آمنة.

- وما الذي يدفعني إلى أن أثق بك ؟

- لأنك لا تملك حلًّا آخر.

قال أحد القادة يخاطب الملك الذي بدت عليه الحيرة:

- سيدي لقد اتخذنا كافة التدابير الأمنية، ولسنا بحاجة لمساعدة شخص غريب الأطوار.

قال الشاب ذو اللثام الأسود يُخبر القائد عن فداحة أخطائهم:

- لقد تسلل العدو إلى داخل أرضكم بالفعل .. ولن تنجح تدابيركم الأمنية التي اتخذتموها إلا في جعل الأمور تسوء أكثر؛ فأفراد الشعب لن يستطيعوا النجاة بأرواحهم بسبب الأبواب المغلقة للأسوار وبالتالي فإنهم سيتحولون إلى طعام سهل للغيلان الجائعة.

قال الملك:

- وماذا تطلب في المقابل ؟!

- أن تقطع عهدًا مُذيلًا بختم المملكة.

- أي عهد هذا الذي تريد من مملكتي أن تلتزم به ؟

- أريد من مملكتك وحلفائها التعهد بمساعدة عاصف وريث عائلة الأباطرة في أي حرب يدخلها.

قال الملك الذي كانت لديه سياسة واضحة تجاه ذلك النوع من الطلبات:

- ترفض مملكة النحاس التدخل في شؤون حربية لا تعنيها.

- إن لم توافق على ما أطلبه أيها الملك فإن غدًا لن يكون هنالك شيء اسمه مملكة النحاس؛ فالغيلان لن تكتفي بالهجوم على أفراد شعبك فقط بل ستواصل زحفها حتى تصل إلى عرشك.

في تلك اللحظة اقتحم أحد الجنود قاعة المداولة دون أن يطرق الباب مستأذنًا بالدخول .. كان الجندي يلهث لشدة الخوف وهو ينقل إليهم هذا الخبر الصادم:

- لقد بدأت الغيلان بالهجوم ! !

غادر الملك أديم لبعض الوقت وحين عاد كان يُمسك بيده ورقة تُفيد بتعهد مملكة النحاس وحلفائها بالوقوف إلى جوار عاصف في أي حرب يدخلها مقابل أن يقوم الشاب ذو اللثام الأسود بردع هجوم الغيلان.

قام الشاب بطيِّ الورقة ووضعها إلى جانب أوراق كثيرة مماثلة كانت مطوية في جوف حقيبة جلدية يلفها حول خصره وهمَّ بالمغادرة.

أوقفه الملك:

- ألا تُفصح لنا عن اسمك قبل أن ترحل أيها الشاب ؟!

أفصح الشاب لهم عن اسمه ثم تلاشى مع الهواء .. لن ينسى الملك وكل من كان معه ذلك الاسم وسوف يظلون يذكرون قصته طويلًا ويحكونها إلى الأجيال القادمة.

كان اسم الشاب ذي اللثام الأسود هو: الشمالي

••

بدأ طائر العنقاء الأحمر (إكليل) الهجمة حيث: حلّق بجناحيه الطويلين على ارتفاع عالٍ ثم قام بشنِّ غارة جوية سريعة على جموع قبائل الغيلان.

وفي تلك الأثناء وبينما الغيلان مُنشغلون بمحاولة إيقاف قذائف النار، إذ تحول أوس إلى طور الذئب وأخذ يتوغل مخترقًا صفوف القطيع حتى وصل إلى القلب - حيث قائد الغيلان - وقتله.

أما الشمالي فإنه لم يجرد سيفه في المعركة بل قام مستعينًا بقوة الأثير التي علمه إياها مؤخرًا (المعلم أركائيل[6]) قام بالسيطرة على مناطق الإدراك في رؤوس الغيلان، واستطاع بذلك أن يقسمهم إلى فريقين يُقاتل كلُّ فريق منهما الآخر.

ما أن انتهت المعركة وأراد الأصدقاء الثلاثة الرحيل إلى مكان آخر للبحث عن حليف جديد يضمونه إلى قائمة الحلفاء حتى لاحظ طائر العنقاء إكليل شيئًا ما؛ فقال وهو ينظر نحو حقيبة الشمالي:

- إنها تومض.

---

٦ في رواية الجسّاسة طلبت العرّافة سيريل من (الشمالي وأوس وطائر العنقاء إكليل) الارتحال إلى معلم اسمه (أركائيل) ليقوم بتطوير مهاراتهم القتالية .. وطلبت منهم بعد ذلك الذهاب للبحث عن حلفاء يقفون إلى جوار عاصف في حروبه القادمة.

مدَّ الشمالي يده إلى حقيبته وأخرج منها ذلك الشيء الذي يومض، لقد كانت قطعة الاتجاه الجلدية وقد ظهرت في منتصفها تعويذة بلون أحمر: إنه الاستدعاء - استدعاء عاصف لهم - قرأ الاصدقاء الثلاثة التعويذة وما أن فعلوا ذلك حتى انجذبوا إلى الرقعة الجلدية واختفوا داخلها.

٤

المبعوث المعجزة

إنه العيد السنوي لـ ممالك محيط الشمال،

في ذلك اليوم جلس الملوك والأمراء في المقاعد الأمامية ومن خلفهم جماعة من نُبلاء الشعب - رجالًا ونساء - ينتظرون خروج المبعوث المعجزة من داخل الخيمة العظيمة ليُلقنهم تعاليم الرب التي ستخلِّصهم من الذنوب والمعاصي بحسب اعتقادهم وتضمن لكل واحد منهم مقعدًا في الجنة

داخل الخيمة العظيمة

وقف المبعوث المعجزة أمام المرآة بقامته القصيرة التي لا تتجاوز الشبر، وأخذ يتأمل نفسه ليتأكد من تمام جاهزيته قبل لقائه بالحشود المنتظرة في الخارج.

وبينما هو كذلك إذ أتاه الصوت الأنثوي من خلفه قائلًا:

- لماذا لا تريد أن تخبرني عن الذي تخطط له ؟!

يُجيب المبعوث المعجزة بصوت وقور وهو ما يزال يتأمل صورته المنعكسة على سطح المرآة ويُحاول وضع اللمسات الأخيرة على هِندامه قبل المغادرة:

- أريد أن أنقل إليهم تعاليم الرب يا أُختاه.

حدقت الفتاة في وجهه وجعلت تتأمله: كان المبعوث المعجزة عبارة عن فأر - فأر ناطق - كل ما فيه قصير لكنه يتمتع بلسان طويل ولحية تُشبه لحية عنز فحل.

قالت:

- يعجبني فيك أنك تكذب الكذبة وتصدقها أيها الحكيم.

الحكيم وهو يلتفت إليها محذرًا:

- ششششش .. اخفضي صوتك يا بَرقاء؛ فإن عرف ملوك وأمراء محيط الشمال بأننا نكذب عليهم فإنهم لن يتأخروا بطبخنا على عشائهم هذه الليلة.

رغم الوقت الطويل الذي قضته بَرقاء بصحبة الحكيم، إلا أنها ما تزال تجهل شخصيته المجنونة والمعقدة .. تجهل العين الساخرة التي ينظر بها نحو الأشياء

إنما تجهل التناقض الغريب بين مشاعره الحساسة وبين لسانه الطويل غير المبالي بشيء، تجهل طريقته في التخطيط والتفكير وتحليل الأمور؛ وهذا ما جعلها يومًا تقول له:

- لم يسبق في حياتي أن قابلتُ شخصًا شديد التناقض مثلك.

قال لها الحكيم حينها:

- أنا شخص لو فتحتِ رأسه فلن تجدي عقلًا، بل سوف تجدين فردة حذاء قديمة وقذرة .. وبالرغم من ذلك فأنا أعقل العقلاء وأجن المجانين على وجه الأرض.



كانت ممالك محيط الشمال تُعد واحدة من أقوى اتحادات الممالك المتحالفة على الأرض القديمة، وقد استطاع الحكيم بدهائه أن يخدعهم ويُقنعهم بأنه مبعوث جاء من السماء حاملًا إليهم رسالة الرب وقد آمنوا به وصدقوه؛ فبحسب تحليلهم للمسألة: لا يمكن لفأر أن يكون ناطقًا مثلهم إلا إن كان مبعوثًا من عند الرب.

كانت بَرقاء تُدرك خطورة الموقف؛ فلو أن أحدًا من ملوك أو أمراء المحيط أحس بالكذبة التي انطلت عليهم فإنهم لن يتأخروا في قتلها وقتل الحكيم معًا:

- أعترف لك بأنني لا أفهمك أبدًا .. ولكنني أفهم شيئًا واحدًا فقط وهو أن تهورك هذا سوف يتسبب في قتلنا .. ويجب عليك أن تتوقف الآن أيها الغبي الأبله الأحمق !!

- ششششش

- لن أتوقف حتى تتوقف !!

- واصلي شتمي، لا مشكلة، ولكن بصوت منخفض !!!

لم تُصغِ إليه وواصلت إطلاق الشتائم بصوت مرتفع، الأمر الذي حدا به إلى أن يقول:

- سوف يُكشف أمرنا أيتها البقرة !!

صمتت قليلًا كما لتحاول أن تستوعب صدمتها:

- ماذا قلت للتو !!؟

- قلت بأنك بقرة! وهذا هو التفسير الوحيد الذي يشرح عدم فهمك لجملة اخفضي صوتك.

قالت وقد خرجت أعصابها عن السيطرة:

- أتعلم ؟! .. معك حق أنا بقرة لأنني ما زلتُ أسايرك في هذه اللعبة، ولكن منذ الآن فصاعدًا أنت من طريق وأنا من طريق آخر ولن تجدني أبدًا !!

كل ما كان عليه أن يفعله تلك اللحظة فقط هو أن يلتزم الصمت ويُظهر لها بعضَ الأسف علّها تهدأ وينطفئ غضبها، ولكن التحكم باللسان لم يكن إحدى المهارات التي يجيدها الحكيم:

- حسنًا اذهبي

وأضاف قائلًا وهو يراها تبتعد غاضبة:

- ولكن احذري من أن يراكِ أحد رُعاة البقر فتقعي في مشكلة كبيرة.

كان رده ذاك أشبه بمن يضع الزيت فوق النار.

توقفت مكانها، ثم استدارت نحوه وقالت:

- لن أغادر قبل أن أخبرهم بحقيقتك

- سوف تُمسي طعامًا في بطونهم !!

- لا أبالي

- لقد شاهدتم وهم يأكلون الطعام .. إن أولئك الرجال لا يتركون حتى العِظام في حالها !!!

صاحت بصوتٍ مرتفع:

- سأقول لهم بأنك لستَ سوى إنسان حقير ألقى عليه أحد السحرة تعويذة ما سخطته إلى فأر .. سوف أخبرهم بأنك كاذب ذو لسان طويل .. ..

صمتت بَرقاء فجأة ولم تكمل كلامها؛

كان صمتها المفاجئ ذاك يعود إلى هذا السبب:

لقد اقتحم عليهما الخيمة شخص ما .. إنه أحد رجالات ممالك محيط الشمال وقد بدت عليه علامات الدهشة وهو يصوب نظراته نحو الحكيم.

أدرك الحكيم السبب؛ فقال هامسًا وهو يلتفت نحو بَرقاء:

- لقد كُشف أمرنا، أأنتِ سعيدة الآن ؟

قالت هامسة: أنا آسفة.

رغم الموقف الصعب إلا أنه لم يستطع منع نفسه من الضحك، تعجبت بَرقاء من رؤيته يضحك في ذلك التوقيت فتساءلت:

- ما بك ؟

- لماذا تُخفضين صوتك بعد أن كُشف أمرنا، ألم أقل لكِ بأنكِ بقرة ؟

- كررها مرة أخرى وسأقتلك.

- لا تُتعبي نفسك؛ أولئك الرجال سيقومون بالمهمة نيابة عنك أيتها البقرة.

كادت أن تتشاجر معه ولكن الرجل الذي اقتحم عليهما الخيمة قال وهو ينظر إلى الحكيم كاشفًا عن سبب الدهشة التي اكتست بها ملامحه:

- نور الإيمان يسطع من وجهك أيها المبعوث المعجزة.

التفت الاثنان - الحكيم وبَرقاء - بعضهما إلى بعض والابتسامة تعتلي وجه كل واحدٍ منهما، لقد كانت فرحتهما بمعرفة أن الرجل لم يكتشف حقيقة أمرهما كفيلة بأن تجعلهما يعودان صديقين مجددًا.

قال الرجل متوددًا:

- الجميع في الخارج يتوقون للاستماع إلى حديثك.

تردد الحكيم قليلًا إنه يثق بنفسه ولكنه غير معتاد على مقابلة الجماهير ويخاف أن يتلعثم أو يُخطئ فتنكشف كذبته، همست بَرقاء وقد أدركت حاجته لدعمها:

- لا أعرف ما تنوي القيام به، ولكنني أثق بك.

كان كلامها بسيطًا ولكنه صادق؛ لذلك استقرت كلماتها في قلبه وقد أحدثت التأثير المطلوب .. ندت عن الحكيم ابتسامة خفيفة وبات يشعر بأنه يستطيع أن يكذب الآن وهو واثق بنفسه.

دُقت الطبول في الخارج فتحولت الأبصار نحو المنبر العالي،

وما أن ظهر المبعوث المعجزة أمامهم حتى أغلق الجميع أفواههم وأنصتوا إليه.

**

ابتدأ الحكيم حديثه بأن قال:

- كان (سوميا) هو أول الجن على هذه الأرض ومن نسله جاءت مخلوقات النار .. وقد كان الجن في عهد والدهم سوميا يعبدون الرب ويطيعونه .. ولكن مع تقدمه في العمر وتزايد أعداد أبنائه تراخت قبضته عليهم وهذا ما جعلهم يفسدون في الأرض ويسفكون فيها الدماء حتى اشتكت الأرض إلى خالقها قائلة: ربي لقد مسّني هؤلاء القوم بالأذى فارحمني برحمتك.

صمت الحكيم قليلًا وأخذ ينظر إلى الوجوه، كان يعلم من خلال تلك النظرات المتطلعة إليه أنه أستطاع استدراج فضولهم إلى حده الأقصى وأنهم يتطلعون لسماع المزيد

٥

ملحمة السماء والأرض

" المبعوث يروي "

ذات فجر أحد الأيام سمع أبو الجن (سوميا) صوتًا غريبًا قادمًا من الأعلى فأحس بالخطر؛ إنه يُدرك جيدًا أن ما سمعه للتو لم يكن أحد أصوات الجن.

رفع سوميا رأسه نحو السماء،

فشاهد كائنًا ضخمًا من ذوات الأجنحة الأربعة يهبط إليه؛ أحس بالتهديد واستعد لقتاله ولكن الكائن أوضح له أنه لم يأتِ لأذيته بل جاء لينقل إليه رسالة:

- لقد حلَّ غضب الله على الفاسقين يا سوميا؛ فخذ معك ما استطعت من أبنائك الصالحين وارحل إلى الأرض المقدسة.

- أي أرض هذه ؟

- أرض مكة

بعدها بأيام قليلة قُرعت أجراس الكون، كانت تلك الأجراس بمثابة الإعلان عن بدء الغزو - غزو السماء إلى الأرض - رفعت الجن رؤوسها فشاهدت آخر شيء كانوا يتمنون مشاهدته:

إنه جيش كبير من الملائكة يقودهم ملاك يُدعى: إسرافيل

**

أعلنت الجن النفير في ممالكهم،

وحشدوا قواتهم من كل أصقاع الأرض ليعدوا جيشًا مضادًّا لمجابهة الملائكة والتقى الجمعان في أكبر معركة يشهدها التاريخ، جيوش النور مقابل جيوش النار.



كان الملك إسرافيل هو أول من بدأ الهجوم حيث: نفخ في البوق العظيم، ومع تلك النفخة اهتزّت الأرض وزُلزلت أعماقها وتغيرت ملامحها إلى الأبد: فقُسمت يابستها إلى سبع قارات، وتكوّنت الجبال وحُفرت مجاري الأنهار وقيعان البحار.

وبعد أيام - لا يعلم قدرها إلا الله - كانت الملائكة قد قتلت السواد الأعظم من الأعداء وهرب البقية - بقية الجن - من ميدان المعركة واختبؤوا في جحور الجبال والجُزر البعيدة

وبعد ذلك عادت أجراس الكون تُقرع من جديد

مُعلنة انتصار الملائكة

**

مرّ وقت طويل والجن ما تزال تتحصن في مخابئها يخافون من الهلاك إن عادوا إلى أوطانهم؛ فاختاروا البقاء حيث هُم حتى جاء اليوم الذي تغير بعده كل شيء: فقبل غروب شمس يوم الجمعة بلحظات يسيرة رفعت الجن رؤوسها نحو الأعلى وشاهدوا أمرًا كان أشد قسوة عليهم من الموت

لقد شاهدوا مخلوقًا غريبًا من الطين تهبط به الملائكة نحو الجهة الشرقية من الأرض ثم سمعوا صوت منادٍ من السماء يُعلن قائلًا:

(آدم)

كما شاهدوا أيضًا في الوقت ذاته مخلوقة أخرى من الطين تهبط الملائكة بها نحو الجهة الغربية من الأرض .. وسمعوا صوت منادٍ من السماء يُعلن قائلًا:

(حواء)

تلفتت الجن بعضها إلى بعض وقد أدركوا الحقيقة المفجعة:

(لقد استبدلهم الرب بخلق آخر)

ومنذ ذلك اليوم انقسم الجنِ إلى فريقين:

جن صالح رضوا واقتنعوا بالعقوبة التي حلّت عليهم،

وجن فاسد أُطلق عليهم اسم (الشياطين) جعلوا لأنفسهم مهمة مستقبلية واحدة: الانتقام من سُلالة آدم وحواء التي خطفت منهم سيادة الأرض



عند ذلك القدر توقف الحكيم عن سرد القصة .. كان المستمعون ينظرون إليه بشغف يطلب المزيد؛ أدرك أن الوقت بات مواتيًا لتنفيذ الخطة فصاح عاليًا:

- هنالك حرب كبيرة قادمة تسعى فيها الشياطين لاستعادة سيادتها على الأرض، وإنني أجوب الأصقاع بحثًا عن عباد الرب الصالحين الذين يقفون معي لمواجهة الخطر القادم !!

وصاح بنبرة حماسية وهو يقول الجملة الأهم لديه:

- فبايعوني على نصرة الحق ودحر الشر عن هذه الأرض !!

نحض ملوك وأمراء المحيط جميعًا،

وبايعوه على أن يكونوا حلفاءه عندما تقوم الحرب

وهكذا استطاع الحكيم بمعرفته الواسعة وعلمه الغزير في تاريخ الأمم السابقة، أن يمرر خدعته عليهم ويضمهم إلى قائمة الحلفاء الذين سوف يقفون مع عاصف في حربه القادمة.

**

حين انتهت مسيرة المبايعة أخيرًا أعطى الحكيم بصفته المبعوث المعجزة أمرًا للرجال بالانصراف؛ متعللًا بأن هنالك حديثًا خاصًّا يجمعه بالنساء

وبينما الرجال ينصرفون إذ اقتربت منه بَرقاء متسائلة وكلها قلق؛ لأنها كما تعرف الجزء الذكي من الحكيم فإنها أيضًا تعرف الكثير عن غبائه وحماقته:

- لماذا طلبت صرف الرجال واستبقاء النساء ؟!!

- لأنني أريد أن أطهرهن من الذنوب والمعاصي

- ليكن في علمك أنني أعلم ما تفكر فيه !!

- ممم .. جيد بقرة مشعوذة، تعرف الخبايا والأسرار المدفونة.

- أنتَ مريض ويجب أن تتعالج !!

- وهذا جزء من علاجي؛ فالبقاء مع النساء مُفيد للصحة.

قالت تحذره من مغبة الانجراف وراء أفكاره الشيطانية:

- كانت العرّافة سِربيل قد كلفتنا بالترحال والبحث عن حلفاء يقفون إلى جوار عاصف، وقد نجحنا الآن بالفعل في الحصول على حليف لا يُقهر فلا تَفسد الأمر بغبائك !!

قام متجاهلًا نصيحتها - كعادته عندما يعلق شيء في رأسه - والتفت نحو جموع النساء ينظر إليهن مثل جائع ينظر إلى مائدة طعام شهية، وصاح مناديًا:

- أيتها النساااااء ! ! !

تركزت عيونهن الجميلة عليه، فقال بصوت تملؤه الحكمة والوقار:

- كانت الشياطين الخبيثة أول من اخترع الأقمشة، وأول من حاكها وجعل منها فساتينَ وألبسة.

أشاحت بَرقاء بوجهها إلى الجهة الأخرى ومَشت إلى الخيمة؛ إنها لا تريد أن تكون شاهدة على ما سيحدث بعد قليل .. بينما أكمل الحكيم كلامه بصوته الوقور يأمر جموع النساء:

- فانزعن هذه الأقمشة عنكن وتخلصوا من عمل الشيطان !!

مكث الحكيم ينظر إليهن بشغف أبله،

ولكن قبل أن يحصل على ما كان يريد خرجت بَرقاء من داخل الخيمة لتقول له:

- إنها تومض !!

الحكيم وعيناه مُثبتتان نحو جموع النساء:

- معك حق يا بَرقاء، أجسادهن سوف تومض بعد قليل لشدة جمالها.

- لم أقصد ذلك أيها المريض.

ورفعت شيئًا كان بيدها وقالت: انظر هنا

نظر نحو الشيء الذي تحمله بيدها وقد كانت (قطعة الاتجاه) فهبط من المنبر العالي ودخل الخيمة، قالت بَرقاء تسأله:

- ماذا نفعل الآن ؟!

- اكتبي له أن ينتظر قليلًا؛ أخبريه أن لدى الحكيم شيئًا أهم هذه اللحظة.

- أهم من صديقك ؟!

- أهم من أمي وأبي شخصيًا !!

- ولكن التعويذة لن تنتظر طويلًا؛ يجب أن نقرأها الآن قبل أن ينتهي مفعولها.

لقد استطاعت أن تلوي بذلك ذراعه، صمت قليلًا يُقلِّب الكلام في رأسه، ثم فجأة: أمسك رأسه وأطلق صرخة مقهورة تشبه صرخة من تلقى ضربة في مكان حساس:

- لماذا الأشياء السيئة تحدث للأشخاص الطيبين ؟!!

قالت كما لتساير عقله المريض:

- كُن قويًا؛ فالرب يختبر عباده الصالحين بالمصائب.

ثم مددت قطعة الاتجاه أرضًا وقالت:

- آأنت مستعد ؟!

مكث ينظر إليها بنظرات غريبة، فقالت:

- ما بك، لماذا تنظر إلي هكذا ؟!

- لماذا لا تتخلصين من أقمشة الشيطان؛ فتتبارك تعويذتنا ؟

ابتسمت ساخرة وقالت:

- أنا لا أؤجر عقلي لأحد.

ثم أمسكت به وقرأت التعويذة؛ فانجذبا إلى داخلها.

١

الأصدقاء

وصل الحكيم وبَرقاء

ليجدا في انتظارهما كلًّا من:

(عاصف والشمالي وأَوس وطائر العنقاء إكليل)

مضى زمن طويل لم يلتقِ فيه الحكيم بهم؛ فكان من الطبيعي أن يراهم يُرحبون بقدومه ولكنه بدلًا عن ذلك شاهد وجوهًا يملؤها الكدر والضيق.

قال يسأل بنبرة جادة:

- ما بكم وكأني أرى طيف الموت يُحلق فوق رؤوسكم ؟!

- اجلس أيها الحكيم - قال الشمالي - فهنالك شيء يجب أن تسمعه معنا.

اتخذ الحكيم مكانًا للجلوس،

وتعمدت بَرقاء - لحاجة في نفسها - أن تجلس في مكان يكون أوس فيه أمامها.

تركزت العيون نحو عاصف الذي بدأ يقصُّ عليهم ما حدث معه أثناء غيابهم: ابتداءً بالفخ الذي نصبته الوزيرة خيزران وانتهاءً بظهور سرابي ثم لقائه بطاغين في السجن.

وعندما انتهى من حديثه كان الأصدقاء بحاجة لفترة من الصمت؛ ليستوعبوا الأحداث الصادمة التي استمعوا إليها للتو.

**

وبعد مرور بعض الوقت، كان الحكيم هو أول من كسر فيهم جدار الصمت بأن قال بنبرة بدت أنها تحمل قدرًا لا بأس به من العصبية والغضب:

- لماذا لم تقتله حين أُتيحت لك الفرصة داخل السجن ؟!

- لأنه أخبرني بالسر الذي يخص اختفاء سرابي

- إنه لا يعرف شيئًا، إنه يكذب !!

- وما أدراك أنه يكذب ؟!

- كل المخلوقات رضعت حليبًا من أثداء أمهاتها إلا ذلك النجس فقد رضع الكذب والغدر والخيانة.

وأكمل الحكيم يُعاتبه:

- كان بوسعك أن تقتله وتثأر لكل الأصدقاء الذين ماتوا من أجلك ولكنك كنت أحمقًا كعادتك، تندفع مثل الثور خلف عواطفك.

في الحالات الطبيعية لم يكن عاصف ليغضب مما قاله الحكيم إلى هذه الدرجة .. ولكن التراكمات جعلته غير قادر على أن يضبط أعصابه؛ فسدد إليه ضربة قوية

أما الحكيم فإنه لم يكن يملك حولًا ولا قوة وهو يرى الضربة قادمة نحوه؛ فأغمض عينيه وغطى بيديه الهزيلتين وجهه استعدادًا لتلقيها ولكن الضربة لم تصل إليه؛ ذلك أن الشمالي اعترض طريقها مستخدمًا غِمد سيفه.

وهمس إلى عاصف معاتبًا:

- أبهذه الطريقة تُعانق أصدقاءك بعد كل هذا الغياب ؟

كان عاصف ما يزال مهتاجًا؛ لذلك سدد بقبضة يده الأخرى لكمة نحو الشمالي .. ولكن الشمالي انتبه عليها واستطاع أن يوقفها بواسطة درعه:

- لا تغضب؛ إن الغضب يُعميك.

عاصف وقبضته في الهواء تتحدى صلابة درع الشمالي:

- أأصبحت تقف ضدي الآن ؟!

- أرأيت لو أن العالم كله يقف ضدك .. أرأيت لو أن الجميع يتركك تقاتل في ساحة الحرب وحيدًا .. ثق بأنني سأكون معك .. أقف إلى جوارك كتفًا بكتف .. قد لا أستطيع حينها هزيمة العالم ولكن من المؤكد بأنني لن أتركك تتلقى الضربات وحدك

كاد عاصف أن يهدأ ولكن الحكيم واصل عتابه قائلًا: كان ينبغي عليك أن تستعرض رجولتك هذه أمام طاغين، وليس أمام أصدقائك أيها الأحول !!

فقد عاصف سيطرته تمامًا واكتست عينه اليُسرى باللون الأحمر، أدرك الشمالي أن عليه استخدام قوة أكبر هذه المرة لردعه؛ فجرَّد سيفه الطويل من غِمده واتخذ وضعية الدفاع لحماية الحكيم وهو يقول له معاتبًا:

- تبًا لك ألا تعرف كيف تسكت ؟!!

وعندما أصبح القتال وشيكًا زأر طائر العنقاء إكليل وجعل يحوم في الهواء مُعلنًا بذلك أنه لن يلتزم الحياد وسيقف مع سيده عاصف في حال قامت المعركة.

صاحت بَرقاء في محاولة لتهدئة الأطراف:

- توقفوا !!

لَم يُصغِ إليها عاصف وهجم بسرعة نحو الشمالي راغبًا في تخطيه والوصول من بعده إلى الحكيم .. ولكن شخصًا ما اعترض طريقه وأوقفه:

كان ذلك الشخص هو أوس وقد كان متشكلًا بطور الذئب.

قال:

- لقد مات والدي الشيذمان وهو يدافع عنك؛ ومات الكثير من أفراد قبيلتنا أيضًا للسبب ذاته، فإذا كانت تضحياتهم لك تعني شيئًا فأرجوك اهدأ ودعنا نفكر بحكمة وعقل في خطوتنا القادمة.

كانت تلك الكلمات كفيلة بأن تعيده إلى رشده: فعادت عينه اليُسرى للونها الطبيعي .. وعاد طائر العنقاء إكليل يستقر فوق جذع الشجرة المتينة التي كان يستقر فوقها قبل أن يطير

وبعد مرور وقت هدأت فيه النفوس،

التفت الشمالي نحو عاصف وألقى عليه السؤال الأهم:

- ما هو السر الذي أخبرك به طاغين عن زوجتك سرابي ؟!

اخفض عاصف رأسه ونظر نحو الأرض وكأنه بذلك يحاول التهرب من إخبارهم بالسر.

قال الشمالي يدفعه للحديث:

- إننا أصدقاؤك وحيث الأصدقاء، توجد المنطقة الآمنة.

وعندما استمر عاصف في صمته، قالت بَرقاء توضحَ له أمرًا:

- إننا لا نطلب منك أن تتحدث لتقنعنا بجدوى المهمة؛ فنحن معك في جميع الأحوال .. إنما نطلب منك الحديث لنقتسم معك الحزن؛ فالأصدقاء أيضًا يقتسمون الحزن كما يقتسمون الخبز والماء.

يزول قلق المرء بالصحبة الطيبة؛ لقد كان مُمتنًا لوجودهم بالقرب منه وقد أحس وهو بينهم بأنه يتوارى خلف حِصن منيع يحميه من كل الأخطار المحدقة.

بدأ عاصف يخبرهم بالسر الذي أخبره به طاغين، فجعل الأصدقاء ينصتون إليه .. وأثناء ذلك لم يشعر أحد منهم بذلك الشخص الذي كان من وراء أشجار الغابة يراقبهم بعينيه السوداء الأشبه بحجرٍ مقدس.

٢

السر الخاص بـ سرابي
" عاصف يروي "

عندما هاجم طاغين وأعوانه قصر أبابيل قبل أعوام وأحرقوه:

. أخذت الملكة سرابي حينها طفلتها الرضيعة (جومانا) بين يديها وهربت بها إلى الجزء الخلفي من القصر .. واختبأت هناك لبعض الوقت ريثما تأتيها النجدة..

ولكنها حين لمحت اقتراب أعوان طاغين أدركت فورًا أن عليها تغيير الخطة قبل أن يكشفوا مخبأها: فركضت نحو البحر حيث كان هنالك قارب خشبي يرسو بالقرب من الشاطئ، وضعت طفلتها في جوف القارب ثم دفعته إلى البحر وكلها أمل أن يحفظ الرب لها طفلتها ويوصلها إلى بر آمن.

لم يمضِ وقت طويل على ابتعاد القارب حتى ألقى الجنود القبض على سرابي وأودعوها السجن ريثما يصدر الملك غدًا في حقها الأمر بالقتل.

كان لدى سرابي حينها أمل وحيد للنجاة وهو الاستعانة بالتعويذة التي كانت كوبرا أفعى الجن تارا قد علمتها استخدامها؛ فرددت ثلاث مرات قائلة:

" خافينا تعال اخفينا "

" خافينا تعال اخفينا "

" خافينا تعال اخفينا "

وما أن انتهت حتى ظهر لها شيطان أزرق يلتف حول معصم كلٍّ من يديه سوار حديدي صدئ.

كانت سرابي حينها تذكر جيدًا أن تارا قد حذرتها بألا تطلب من ذلك الشيطان طلبًا غير الاختفاء .. ولكن سرابي حينها لم يكن لديها حل آخر غير أن تجازف وتجرب حظها:

- أريد أن أطلب منك شيئًا آخر غير الاختفاء.

- سأفعل أي شيء تأمرينني به يا سيدتي.

تعجبت سرابي من تلك السهولة في استجابة الشيطان وأحست بأن في الأمر فخًا:

- ألن تطلب شيئًا في المقابل ؟

ضرب الشيطان المملوك قيود يديه بعضها ببعض وقال:

- إذا أردتِ أن أصنع لكِ شيئًا غير الاختفاء؛ فعليكِ أن تُحرري يدَيَّ هاتين من قيودهما.

- وكيف أُحررهما ؟!

قال برسمية مفرطة وكأنه يتلو نصًّا من أحد الكتب:

- تتحرر قيود يد الشيطان المملوك عندما توافق فتاة إنسية على الزواج به.

قاطعته سرابي بانفعال حينها:

- ولكني متزوجة !!

قال بانفعال يُشابه انفعالها:

- ولكنني لم أنتهِ من كلامي بعد !!

صمتت لتدعه يُكمل بينما أعاد الشيطان خافينا تلاوة إجابته من البداية:

- تتحرر قيود يد الشيطان المملوك عندما توافق فتاة إنسية على الزواج به .. بشرط أن تكون تلك الفتاة متزوجة

صمتت سرابي من هول الصدمة،

وطال صمتها أكثر مما يستطيع الشيطان أن يصبر فقال يحثها على اتخاذ القرار:

- لن تنجحي في الخروج من هذا القفص إلا إذا وافقتِ.

وأضاف ليُغريها: قولي نعم، وسأنقلكِ في لحظة لخارج هذا القفص.

كانت مترددة لا تعلم بمَ تجيب؛

فإن وافقت خرجت من السجن وإن رفضت فإنها سوف تبقى حبيسة القضبان حتى يأمر طاغين غدًا بقتلها، سألها الشيطان وعيناه تلمعان خبثًا:

- هل تقولين نعم ؟!!

قالت وقد حسمت أمرها:

- أخرجني من السجن أيها الشيطان.

المهمة المستحيلة

نظر الأصدقاء إليه - إلى عاصف - بذهول وهُم لفرط الدهشة يكادون ألَّا يصدقوا ما سمعوه .. قالت بَرقاء بعد قليل كما لو أنها أرادت أن تتأكد من أن ما فهمته كان صحيحًا:

- هل هذا يعني أن سرابي وافقت على الزواج من الشيطان ؟!!

أجاب بصوت متردد:

- لا أعلم ولهذا الأمر استدعيتكم؛ أريد أن أتأكد من حقيقة الأمر بنفسي.

أوس:

- وكيف نتأكد ؟

- بذهابنا إلى بحر ذي النون.

قال الحكيم الذي يُدرك خطورة ذلك المكان:

- سنذهب لذلك البحر من أجل أن نُفضفض إليه ونرمي عليه همومنا فقط أليس كذلك ؟

- لا، بل من أجل أن نُبحر فيه.

- إبحارنا فيه على متن القارب سيكون مهمة مستحيلة.

- من قال إننا سوف نُبحر على متن قارب ؟!

- على ظهور البعير إذًا ؟!

- سوف أفسد عليك المفاجأة لو أخبرتك.

- أفسدها أرجوك.

- ألا تحب المفاجآت ؟

- أُحبها ولكن بشرط ألّا تكون أنت وراءها.

بَرقاء تسأل الحكيم:

- لمَ أنت خائف من ذلك البحر ؟

قال الحكيم يشرح لهم عن بحر ذي النون:

- إن ذلك البحر هو ذاته البحر الذي مكث فيه نبي الرب يونس ببطن الحوت لمدة أربعين يومًا.

لم يكن هنالك خطر فيما قاله الحكيم، الخطر يكمن فيما سوف يقوله لهم الآن:

- يُقال بأن هنالك مملكة أسفل ذلك البحر تُدعى (أغاريب)

وأضاف يشرح لهم عن تلك المملكة البحرية ذات الاسم الغريب وغير المألوف:

- لا أحد يُسمح له بالمرور فوق المجال البحري لتلك المملكة، يروي بعض البحارة القليلين الذين استطاعوا النجاة بأرواحهم من هناك بأنهم شاهدوا سفنهم الضخمة المصنوعة من الخشب والفولاذ تتمزق وتغرق أمامهم مثل سُفن ورقية.

وحين انتهى قال متسائلًا وهو يلتفت نحو عاصف:

- أما زلت تنوي الذهاب بنا إلى هناك ؟!

- إنما الطريقة الوحيدة للتأكد مما إذا كانت سرابي قد تزوجت بالفعل من ذلك الشيطان أم لا.

- وهل فكرت بالطريقة التي سوف نُبحر فيها من هناك دون أن نلفت أنظار حرّاس مملكة أغاريب إلينا ؟!

- لسنا بحاجة إلى ذلك؛ لأننا سوف نذهب إليهم.

وحين بدت عليهم أمائر عدم الفهم قال:

- على متن الأرض التي نعيش عليها هنالك بوابات سرّية تملك القدرة على نقلنا إلى العوالم الأخرى .. وأقرب بوابة لنا في الوقت الراهن تقبع داخل حدود مملكة أغاريب

لم ينتهِ كلامه ولكنه كان يعلم بأن أصدقاءه بحاجة إلى الوقت لكي تستوعب عقولهم ذلك القدر من المعلومات الجديدة والغريبة عليهم؛ فصمت قليلًا قبل أن يكمل قائلًا:

- مهمتنا الآن هي الوصول إلى مملكة أغاريب حيث البوابة التي نستطيع الانتقال من خلالها نحو العالم السُّفلي والذي يُقال بأن سرابي تتواجد في إحدى ممالكه.

لم يكن الحكيم يُشكك في وجود البوابات السريَّة، ولم يكن يُشكك أيضًا بوجود العوالم الأخرى؛ إنه يعرف بأن الكون المتسع الذي يضم الأرض حتمًا هو يتسع لأن يضم أراضِيَ وعوالم وأسرارًا أخرى قد لا تخطر ببال أحد.

ولكنه كان يُشكك في شيء واحد:

- إذا افترضنا أننا بمعجزة ما استطعنا الوصول بسلام إلى مملكة أغاريب ثم افترضنا أننا بمعجزة أخرى استطعنا الوصول إلى تلك البوابة السرية والانتقال من خلالها .. فهل أنت متأكد من أننا سوف نجد سرابي في العالم السُفلي ؟!!

- لا، لستُ متأكدًا من ذلك.

وحين بانت عليهم ملامح الإحباط قال يُذكرهم:

- ولكن هذا ما أخبرني به طاغين.

- ومن أين جاء هو بهذه المعلومة ؟

- من أحد معاونيه، جني يُدعى ذِمار.

- إذًا سوف نغامر بأعمارنا من أجل معلومة قالها جني اسمه حِمار.

قال عاصف:

- المسألة لا تتعلق بسرابي فقط؛ فلو كان أحدكم مفقودًا ثم جاءت معلومة تفيد بأنه قد يكون في الشمس، لكنت سأجد ألف طريقة للصعود إليه وإنقاذه.

ثم أضاف يُخبرهم بأمر يجول في خاطره:

- عندما قرر كل واحدٍ منكم اللحاق بي كان لديّ هدف واحد وهو استعادة مُلكي من طاغين .. أما الآن فأنا أقوم بمهمة أخرى .. فإذا كنتم غير مستعدين للقيام بها معي؛ فأنا أعفيكم من ذلك.

قال أوس:

- أنت مخطئ؛ نحن لا نتبعك لأجل مهمة محددة .. صحيح أن طاغين قد استولى على عرشك .. لكنك في أعيننا ما تزال الملك الشرعي لأبابيل؛ ولهذا نحن نتبعك.

- وبصفتي الملك، فإني أعفيكم من واجب اللحاق بي.

الشمالي متدخلًا وهو يُحدق سارحًا إلى غِمد سيفه الطويل:

- فنتبعك لأجل الصداقة إذًا.

نهض الجميع واستعدوا للذهاب

ما عدا الحكيم الذي بدا أنه مصمم على عدم مرافقتهم.

لم يكن عاصف ليتخيل نفسه يقوم بمغامرة خطيرة كهذه بدون رفقة الحكيم، ولكن في الوقت ذاته هو لا يريد أن يضغط عليه بالقدوم؛ فقال وهو يُبطن رغبته بالمزاح:

- الكثير من المتعة سوف تفوتك إن لم تأتِ.

- شكرًا؛ الموت غرقًا لن يكون ممتعًا بالنسبة إليّ.

قال طائر العنقاء إكليل معلقًا:

- إن الحياة بدون أصدقاء، لا تختلف كثيرًا عن الموت غرقًا.



كلما تقدم المرء في العمر أصبح أكثر تمسكًا بالحياة؛ ليس رغبة منه في البقاء فيها بل خوفه الغريزي من أن يموت فيُلاقي أعماله السيئة تنتظره في الجانب الآخر.

لذلك قال الحكيم يكشف عن سبب خوفه:

- سوف ندخل الجحيم إن متنا؛ لذلك أريد أن أعمل صالحًا ما تبقى لي من عمر؛ علّ الرب أن يغفر لي فيُدخلني الجنة.

ارتسمت على وجه عاصف ابتسامة وداع وهو ينظر نحو الحكيم للمرة الأخيرة.

حُسم الأمر إذًا، قال وهو يستدير ثم يسير مبتعدًا:

- إلى اللقاء إذًا، سوف نذهب إلى الموت من غيرك هذه المرة.

**

ابتعد عاصف وخلفه الأصدقاء يتبعونه،

ولكنهم لم يتجاوزوا حدود قرية الجسَّاسة إلا وأحس عاصف بأن هنالك شيئًا صغيرًا يتسلق جسده بسرعة خاطفة ثم يستقر تمامًا على متن كتفه الأيمن

لم يلتفت؛ كل ما فعله هو أن ابتسم وقال:

- ما الذي غير رأيك أيها الحكيم ؟

- لن تكون الجنة ممتعة من غيركم، دعونا نذهب إلى الجحيم معًا.

ساروا متجهين حيث بحر ذي النون، وقد كان يتبعهم من بعيد ودون أن يشعر به أحد ذلك الشخص صاحب العيون السوداء الأشبه بحجر مقلس.

٤

بحر ذي النون

كان طاغين قد أخبره بأن هنالك طريقتين للانتقال إلى العالم السُّفلي الطريقة الأولى: عبر ما يُسمى بالبوابة الطبيعية، حيث يوجد في أقصى شمال الأرض بوابة طبيعية تربط بين عالم الأعلى والأسفل .. ولكن ما يعيب هذه البوابة هو مشقة الوصول إليها: فالمسافة بين مملكة أبابيل وبينها ربما تستغرق شهورًا في المسير.

كما أن تلك البوابة أيضًا - ولضمان فرض السلام بين العالمين - كانت تحظى بحراسات خاصة من قِبل اتحاد جيوش الأعلى والأسفل تمنع مرور العابرين من خلالها.

ولهذا كان على عاصف أن يلجأ للطريق الآخر - الأقل صعوبة - وهو العبور من خلال البوابة السرية التي تتواجد أسفل بحر ذي النون حيث مملكة أغاريب.



وصل الأصدقاء أخيرًا إلى بحر ذي النون بعد ثلاثة أيام قضوها في المسير إليه .. وقف الجميع على ظهر تلٍّ عالٍ يكشف المحيط الضخم الأزرق أمامهم، قالت بَرقاء وهي تمسك شعرها بيديها لتحافظ على تصفيفته من عبث الرياح:

- والآن ما الخطة يا تُرى ؟!

كان جواب عاصف بسيطًا للغاية: سوف نقفز إلى البحر.

الحكيم وهو يقترب من حافة التل وينظر بحذر نحو المحيط المائج الأمواج:

- خطة رائعة تستحق وصاحبها الدفن.

الشمالي:

- أنا لا أجيد السباحة.

أوس وهو يضم صوته إليه: وأنا أيضًا لا أجيد السباحة !!

عاصف بدون مقدمات وهو يركض نحو الحافة:

- اطمئنا

ثم وهو يقفز نحو البحر: وأنا لا أجيد السباحة أيضًا !!

الحكيم وهو يراقب هبوط عاصف حتى اللحظة التي يرتطم فيها بالمياه ويغرق:

- انقل إلى والدي ووالدتي تحياتي وأشواقي !!

حلّق إكليل عاليًا ثم استدار وهبط بشكل عمودي نحو البحر يتبع سيده الغارق .. لم يلبث الشمالي كثيرًا حتى قفز هو أيضًا ومن بعده أوس بينما تراجعت بَرقاء وامتنعت عن اللحاق بهم

التفت الحكيم إليها وقال:

- كنت أعلم أنكِ الوحيدة العاقلة فيهم.

- خفت أن أقفز؛ فيُفسد الماء تصفيفة شعري.

صمت الحكيم وجعل يُحدق فيها ببلاهة.

- ما بك تنظر إليّ هكذا ؟!

- أتساءل عن نوع البقرة التي كانت تتوحم عليها المرحومة عندما كنتِ ببطنها.

- أتعلم ؟! .. لسانك الطويل هذا هو من سيُدخلك الجحيم.

قال مغمغمًا وهو يبتعد عن حافة التل:

- يدفعونك لشتمهم، ثم يلومونك على طولة لسانك !!

وحين وصل إلى منطقة بعيدة بعض الشيء توقف ثم استدار وجعل يركض بكل سرعته نحو الحافة

بَرقاء تسأله:

- ماذا ستفعل ؟!!

قفز الحكيم نحو البحر وقال شيئًا وهو يسقط، لم تستطع بَرقاء تمييز ما قاله بسبب الرياح التي بعثرت صوته .. ولكنها كانت تعلم جيدًا أنه شتمها بكلام بذيء.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى قفزت بَرقاء وراءه.

وهكذا أصبح الجميع أسفل الماء يغرقون نحو القاع، وأثناء ذلك كان الشخص صاحب العيون السوداء والأشبه بحجر مقدس يراقبهم في الأسفل وهم لا يعلمون.

٥

أسفل بحر ذي النون

كان عاصف يغرق نحو القاع،

ورغم ذلك كان عقله ما يزال يستطيع العمل بتركيز

مدَّ يده إلى جيبه وأخرج القصبة التي أعطاها إياه طاغين في السجن - مزمار آل سليمان - وضع الفتحة عند فمه ثم نفخ فيها مستخدمًا آخر ما تبقى لديه من الهواء المخزن في رئتيه.

في الحالات الطبيعية لم يكن الصوت سيخرج من فتحة القصبة لعدم توفر الهواء؛ ولكن تلك القصبة كانت لها قدرة استثنائية جعلتها قادرة على اخراج صوتٍ عالٍ أشبه بصيحة فيل هائج ذهبت بعيدًا إلى أعماق البحر المظلمة.

وبينما كانوا يغرقون نحو القاع، إذ فجأة تكوّنت حول كل واحدٍ منهم فقاعة حامية:

(فقاعة خالية من الماء مليئة بالهواء الصالح للتنفس)

استعاد الأصدقاء وعيهم بعد قليل،

وأحس كل واحد منهم بالاطمئنان في البداية؛ لأنه كان يستطيع رؤية صديقه الآخر من خلال السطح الشفاف للفقاعة .. غير أنهم لم يلبثوا طويلًا حتى تمنوا لو أنهم لم يكونوا قادرين على الرؤية وذلك بسبب المشهد المخيف الذي شاهدوه أمامهم

صاح أوس قائلًا:

- لا تقترب، لا تقترب ! !

ولكن ذلك الشيء كان يقترب نحوهم

جوف الكهف

الظلام،

ولا شيء غير الظلام هناك،

كانت أسئلة كثيرة تدور في أذهان الجميع،

ولكن السؤال الأهم الذي كانوا يفكرون فيه تلك اللحظة هو:

" هل مُتنا، أم أننا ما نزال أحياء ؟! "

أشعل الشمالي بأصبعه إضاءة خافتة وجعل يتفحص الأصدقاء بعينيه ليطمئن أن الجميع هُنا وبخير.

قالت بَرقاء وهي تحاول أن تتذكر آخر ما حدث لهم:

- إنّ آخر ما أتذكره هو أن حوتًا ضخمًا كما الجبل كان يقترب منًا، فما الذي جاء بنا إلى هذا الكهف ؟!

بدأ أَوس بالتفتيش في الأرجاء علّه يجد دليلًا يقودهم لمعرفة مكان الكهف الذي هُم فيه أو إلى سبيل للخروج منه، وعندما لم يجد شيئًا يُفيدهم قال:

- يبدو أننا عالقون هنا.

تحسس الحكيم جدران الكهف الداخلية ولاحظ بعض الأشياء التي أثارت تعجبه:

لقد كانت جدران الكهف رطبة وتنبعث منها رائحة ممزوجة ما بين الملح وبقايا الأسماك، اقترب واضعًا أُذنه على جدار الكهف وأخذ يُصيخ السمع بتركيز شديد

.. وهنا كانت المفاجأة ..

لقد كان هنالك صوت داخل الجدران يشبه صوت دقات القلب؛ اتسعت عيناه وقد اكتشف الحقيقة .. أبعد أذنه عن الحائط والتفت إلى أصدقائه:

- إننا لسنا داخل كهف، إننا داخل جوف الحوت !!

التفتوا جميعًا نحو عاصف

وما أن شاهدوا عليه كل ذلك الهدوء حتى أدركوا أنه من استدعى الحوت بنفخة المزمار وأن وجودهم في جوفه الآن كان ضمن سياق خطة محددة.

صاح عاصف بصوتٍ عالٍ:

- أيها الحوت العظيم، خذنا إلى حيث مملكة أغاريب.

٢

في الطريق نحو الأعماق



وبينما الجميع في جوف الحوت: كانوا يستمعون إلى همهمات أصواتٍ غريبة تصلهم من الخارج - من مخلوقات أعماق البحر - قالت بَرقاء التي لم تفهم معناها:

- ما معنى هذه الأصوات يا ترى ؟!

أجابها الحكيم الذي تذكر أنه قد قرأ شيئًا ربما يُفسر الأمر:

- لقد جاء مكتوبًا في بعض الكتب القديمة أن نبي الرب يونس قد استمع إلى أصوات مشابهة لهذه الأصوات .. وحين سأل عنها قيل له بأنها تسبيح المخلوقات لخالقها

راح كل واحد من الأصدقاء - بينه وبين نفسه - وبدافع الفضول يردد تلك التسابيح الإلهية .. صحيح أنهم لم يفهموا معناها الدقيق لكنهم أحسوا براحة عميقة وهم يرددونها سرًّا



غاص بهم الحوت لظلمات البحر السحيقة،

حتى أوصلهم إلى نهاية القاع حيث تنهض مملكة بحرية ذات أبراج صخرية شاهقة الارتفاع تُزينها قناديل يشع منها إضاءات بيضاء تشبه وهج المصابيح.

على مشارف أسوار تلك المملكة توقف الحوت؛

فهو يُدرك جيدًا أنه لا ينبغي عليه الاقتراب أكثر من ذلك الحد.

فتح الحوت العظيم فمه وأخرج الأصدقاء مِن جوفه ثم استدار من هُناك وعام مبتعدًا بسرعة وكأنه لا يريد أن يشهد ما سوف يحدث لهم بعد قليل

قال الحكيم وهو يلوح مودعًا من داخل الفقاعة:

- شكرًا أيها الحوت اللطيف - ثم وهو ينظر نحو بَرقاء:

- يبدو أن الحيتان مخلوقات ظريفة؛ عندما أعود للديار سأقتني واحدًا لأقوم بتربيته.

- أظن أنك بحاجة إلى أن تربي نفسك أولًا.

كاد الحكيم أن يردَّ عليها ولكنه أمسك عن الكلام؛ ذلك أنه لاحظ أمرًا غريبًا: لقد اختفى جميع الأصدقاء من حوله .. عاد ينظر نحو بَرقاء ويسألها:

- أين ذهب الجميع .. .. ؟

لم يُكمل سؤاله؛ وذلك لأن بَرقاء أيضًا كانت قد اختفت.

فكر بالذهاب للبحث عنهم ولكنه حين نظر حوله وجد عُمق البحر مظلمًا ومخيفًا، فقرر أن ينجو بنفسه .. وقال كما ليرضي ضميره وهو يبتعد:

- لو كانوا خيرًا لبقوا.

ثم متحصنًا داخل فقاعة الحماية الخاصة به قطع الحكيم ثلاث خطوات فقط

ثم اختفى فجأة بعد أن هاجمه مخلوق ما واختطفه.

٣

أغاريب

في بقعة ما داخل الأسوار وتحديدًا فوق صخرة بحرية عالية يُطلق عليها اسم (صخرة المحاكمة) وجد الأصدقاء أنفسهم وقد كانت تُحيط بهم مجموعة من الكائنات الغريبة الشكل: لها جذع علوي يشبه الإنسان، وذيل سُفلي يُشبه زعانف الأسماك.

تقدمت القائدة - قائدة الحرس البحري - وقد كانت حورية يافعة تُدعى (دورا) تُمسك بين يديها برمح ذهبي طويل ينتهي بثلاثة رؤوس حادة:

- لماذا جئتم إلى هنا ؟

- أتينا للقاء الملكة إنكال

- لأي غاية ؟

كاد عاصف أن يخبرها - يخبر دورا - عن الغاية الحقيقية ولكنه أمسك عن الكلام؛ ذلك أنه تذكر للتو هذه الجزئية التي قالها له طاغين عندما كانا في السجن:

- تخضع تلك البوابة لدرجة عالية من السرية؛ ولهذا فإنك لن تستفيد شيئًا عندما تخبر الحرّاس بأنك تريد لقاء الملكة لأجل السماح لك بالعبور منها.

سأله عاصف حينها:

- بماذا أجيب إذًا عندما يسألونني ؟!

- فكر بكذبة، ويجب أن تكون مُقنعة حتى يوافقوا على لقائك بملكتهم.

**

كانت مملكة أغاريب تقوم بحفظ وتخزين أموال الممالك الكُبرى في خزائنها؛ وتأخذ مقابلها - مقابل تلك الخدمة - أمولًا طائلة من الممالك المستفيدة؛ وهذه التجارة جعلت أغاريب تسنُّ قوانين صارمة تجاه الغرباء وتفترض أن كل غريب يزور أرضها دون أسباب مُقنعة هو لص لا يمكن التساهل معه.

عادت دورا تسأله للمرة الأخيرة:

- لأي غاية تريدون لقاء جلالة الملكة إنكال ؟!!

لقد نسي عاصف هذا الجزء من الخطة؛ فقد أنسته صعوبة المغامرة أن يفكر بالكذبة المقنعة التي أخبره عنها طاغين .. قالت قائدة الحرس حين طال صمته:

- إنكم لستم إلا لصوصًا جاءت بكم رائحة الذهب والمال.

كان على الحكيم أن يتدخل لشراء بعض الوقت؛ فقال يوجه كلامه إلى قائدة الحرس:

- يا لك من لصة ماهرة.

التفتت دورا نحو الحكيم وقالت:

- كيف تجرؤ على نعتي باللصوصية ؟

- لقد خطف جمالك قلبي، كيف لكِ ألا تكوني لصة ؟

جاهدت دورا لتُبقي فمها مغلقًا؛ فقد خافت أن تبتسم فا تُفسد لابتسامة هيبتها.

كان ينبغي عليه أن يكتفي عند ذلك القدر من الدعابة، ثم يعود بأدب أن يطلب منها لقاء الملكة (إنكال) علّها تجد له منفذًا للقائها ولكنه راح يتمادى كعادته في المُزاح فقال:

- هيا أيتها الجميلة، خذينا إلى الملكة إسهال.

وبسبب تلك الكلمة التي قالها الحكيم قامت دورا بتوجيه ضربة سريعة إليه بعقب رمحها.

صُعق الأصدقاء مما حدث،

فقد غادر الحكيم فقاعته بسبب تلك الضربة.

حاول أن يسبح عائدًا إلى فقاعته الحامية ولكن دورا وجهت له ضربة أخرى كانت القاضية: لم تقتله تلك الضربة ولكنها قذفته بعيدًا نحو ظلام المحيط.

ورغم ابتعاده السريع إلا أن (اقتراب الموت) جعله قادرًا على رؤية الأشياء بطريقة بطيئة جدًّا؛ الأمر الذي جعله يستطيع أن ينظر إلى وجوه الأصدقاء واحدًا واحدًا للمرة الأخيرة

إنه يدرك - بينما هو ينجرف بعيدًا مع التيار - بأن لا أحد منهم سوف يكون قادرًا على إنقاذه؛ ولكن بالنسبة إليه لم يكن هذا هو الأمر المؤسف..

كان الأمر المؤسف بالنسبة إليه هو أنه بعد الموت لن يكون قادرًا على أن يتذكر أحدًا منهم.

أغمض عينيه مستسلمًا بينما التيار البحري يأخذه بعيدًا، فنزلت دموعه التي كانت أشد ملوحة من مياه البحر، قال في نفسه وهو يتلاشى مبتعدًا في ظلام البحر:

- ليت الذاكرة لا تتوقف؛ فأتذكر من أحب بعد أن ينطفئ قلبي.

لم يكن أحد من الأصدقاء يُجيد السباحة بالإضافة إلى أنهم كانوا محاطين بطوق أمني شديد؛ وهذا ما يجعل إنقاذ الحكيم بالنسبة إليهم فكرة مستحيلة التنفيذ.

انحنى عاصف على ركبتيه متوسلًا،

فزأر طائر العنقاء إكليل الذي كان يرى سيده لأول مرة بتلك الحالة الذليلة.

قال عاصف يتوسلها:

- أرجوكِ أنقذيه

قالت دورا:

- لقد أهان الذات الملكية؛ ويجب أن يُقتل.

عاصف وهو يجد صعوبة في الحديث من بين أنفاسه الباكية:

- فإذا كان لا بد أن يموت، فأرجوكِ لا تدعيه يموت وحيدًا.

في غَمرة تلك الأحداث الصعبة كان الشمالي صامتًا،

ليس لأنه استسلم لحقيقة نهاية صديقه المقرَّب إلى قلبه .. بل لأن هنالك صوتًا غريبًا كان يتردد داخل صدره يُطالبه بأكثر الأشياء جنونًا وغرابة:

كان ذلك الصوت يطلب منه أن يغادر الفقاعة

هو لا يُجيد السباحة ويعلم المصير الذي ينتظره بعد أن يصبح منغمسًا في الماء (سوف يموت بسبب نقص الهواء) ولكنه أيضًا يعلم أن ذلك الصوت - صوت قلبه - لا يخدعه.

الشمالي إلى عاصف:

- قِف .. فمثلكَ لا ينحني، وله أصدقاء مثلنا.

قال ذلك ثم غادر الفقاعة.

٤

الشمالي

وما أن بات جسده في الماء حتى اكتشف أنه يستطيع الثبات دون بذل أي جهد يُذكر وكأن لجسده خاصية غامضة تجعله قادرًا على التوازن من تلقاء نفسه.

تعجب الشمالي لأمر آخر وهو أنه كان قادرًا على الرؤية من خلال مياه البحر المالحة والمظلمة بطريقة ربما تكون أشد وضوحًا مما كان يستطيع الرؤية بها وهو فوق اليابسة .. عاد الصوت الداخلي يأمره بشيء غريب:

تنفس

كان يعلم النتيجة مسبقًا:

سوف تمتلئ رئتاه بالماء وسيختنق ولكنه يثق بقلبه.

أخذ الشمالي نفسًا عميقًا،

فوجد أن الهواء يدخل إلى جسده بشكل سلس، ولكن ليس عبر أنفه بل عبر ثلاث فتحات شُقت أسفل كل واحدة من أذنيه، فتحات تُشبه خياشيم المخلوقات البحرية.

وما أن دخل الهواء البحري إلى جوفه حتى تحولت قدماه إلى ذيل طويل ينتهي بزعنفة كبيرة عليها بعض الوشوم المتوهجة التي ما أن شاهدها الحرس – حرس مملكة أغاريب – حتى أحنوا له رؤوسهم احترامًا وإكبارًا.

كان يحق له أن يتساءل عن سر تحوله،

لكن الموقف لم يكن مناسبًا للدهشة أو البحث عن الأسباب، كان هنالك أمر واحد يجب عليه القيام به تلك اللحظة ويجب عليه تنفيذه بسرعة..

حرك الشمالي ذيله الطويل ببراعة وكأن التحرك في المياه بالنسبة إليه كان شيئًا فِطريًا – مُخزنًا في أعماق لا وعيه – وانطلق مندفعًا نحو ظلام المحيط ليعود بعد وقت قصير وهو يُمسك في يده بمخلوق قارض صغير اسمه الحكيم.

٥

العبور

تقدمت قائدة الحرس دورا نحوه،

وهي تحني له رأسها في أدب شديد، قالت ونبرة صوتها تحمل الكثير من الندم:

- لقد أبلغنا القصر بوجودك؛ ولا بد أن الملكة إنكال قد أرسلت من يأتي للقيام بخدمتك يا سيدي.

لم يفهم الشمالي شيئًا وظل صامتًا تدور برأسه مئات الأسئلة.

في تلك اللحظة انتبه الأصدقاء لاقتراب موكب ضخم من الحرس الملكي، تتقدمهم حورية فائقة الجمال تضع تاجًا ذهبيًا فوق رأسها قالت تعرف عن نفسها:

- أنا الأميرة ريلان، ابنة الملكة إنكال.

وأضافت الأميرة ريلان وهي تترك مكانها في مقدمة الموكب وتقترب نحو الشمالي:

- تنقل إليك والدتي أسفها، وتخبرك بأنها مستعدة لتنفيذ أي طلب تطلبه كتعويض عما حدث لك ولضيوفك.

كان يريد أن يسألها عن السر الذي جعله يتحول إلى ذلك المخلوق الغريب، ولكنه يعلم بأن الوقت لا يتسع لمثل هذه الأسئلة؛ فصمت رغم الفضول الذي، كان يتقد في صدره مثل جمرة حارقة وأشار بطرف أصبعه نحو عاصف:

- هو سيخبرك.

الأميرة ريلان وهي تنظر نحو عاصف: ما الذي تأمر به ؟

- نريد العبور - وأضاف: العبور من الآرسس.

آرسس

كان ذلك الطلب - عبور الأرسس - يندرج ضمن صلاحيات الملكة؛ حيث الملكة إنكال وحدها في مملكة أغاريب من تملك صلاحية قبول أو رفض الطلب.

ذهب الأصدقاء نحو القصر،

وقد كان هنالك نوع من الراحة والطُمأنينة بينما هم في الطريق للقاء الملكة؛ ليس لأنهم كانوا يستبشرون بلقائها خيرًا، بل لأن الحكيم كان ما يزال فاقدًا للوعي؛ وهذا يضمن لهم أن لسانه الطويل لن يجلب لهم المزيد من المصائب.

كان القصر الملكي من الداخل خاليًا من المياه رغم وجوده في عُمق البحر،

ما أن ولجت الأميرة ريلان من بوابته واستنشقت الهواء الجاف حتى اختفت خياشيمها وتلاشت زعانفها وتحول ذيلها الطويل إلى قدمين بشريتين، وكذلك حدث مع الشمالي.



وقفت الأميرة بأدب أمام والدتها الملكة الجالسة فوق عرشها، وقالت تخبرها بالطلب:

- إنهم يرغبون بعبور الآرسس.

في الحالات الطبيعية كانت الملكة سترفض ولكنها قالت وهي تنظر نحو الشمالي:

- حُبًّا وكرامة يا ابن نسل الأسيار.

لم يفهم الشمالي ما الذي كانت تعنيه بقولها (ابن نسل الأسيار) ولكن أفراد الحاشية الملكية عرفوا المعنى وسجدوا له احترامًا بعد أن عرفوا إلى أي سلالة عظيمة كان ينتمي ذلك الشاب.

قالت الملكة توجه أمرها إلى ابنتها ريلان:

- استدعي لهم سارية السماء، وأخبريها عن الطلب.



كانت سارية السماء عبارة عن فتاة فائقة الحُسن،

أكثر ما يُميزها هو حِدة ملامحها وشعرها الطويل البني الحلو كالعسل والذي يمتد إلى ما بعد نهاية أسفل ظهرها .. لها عينان خضراوان بلون السبانخ ومحددتان بكحل أسود ثقيل.

قالت تعرف عن نفسها:

- حورائيل، بين يديكِ أيتها الملكة الصالحة إنكال.

وبالرغم من أنها كانت تشبه البشر في هيئتها إلا أن الجميع بمن فيهم أولئك الذين يرونها لأول مرة كانوا يدركون أنها ليست جنية ولا بشرية بل أقرب إلى أن تكون قد خُلقت من النور.

التفتت حورائيل نحوهم لتسألهم:

- أيُّ مكانٍ في الأرض السُّفلية ترمون الذهاب إليه ؟

لقد أخبره طاغين في السجن بألّا احد يعرف مكان سرابي الدقيق:

- إنها تمحو كل أثر يقود إليها؛ لذلك عليك أن تذهب إلى الأسفل وتفتش عنها بنفسك.

كاد عاصف أن يطلب منها فقط نقلهم إلى الأرض السُفلية وأنهم هناك سوف يتكفلون بباقي المهمة .. غير أن الشمالي تدخل في تلك اللحظة وقد كانت لديه معلومة خاصة موثوقة المصدر عن مكان سرابي:

- انقلينا إلى مملكة الحِن والبِن.

١

الأرض السُّفلية
" مملكة الجِن والبِن "

منذ فجر التاريخ وملوك الأرض القديمة يبحثون عن عذاب يكون أشد قسوة من الموت لأولئك العُصاة من أفراد شعوبهم؛ لذلك وُجدت الأرض السُّفلية:

حيث الجوع، والوحدة، والخوف والزمهرير.

وظل ذلك المكان هو المنفى لزمن طويل،

منفًا يُرسل إليه كل من لا تكون عقوبة الموت جزاءً كافيًا له،

ولكن مع الوقت بدأ عدد المنفيين هناك بالتزايد نتيجة لتزاوجهم ثم تزاوج أبنائهم من بعدهم .. حتى بدأت القبائل والقرى شيئًا فشيئًا بالتكون وظهرت المدن وقامت بعدها الممالك .. وباتت الأرض السُّفلية وطنًا تسكنه مخلوقات عديدة من سلالات وأعراق مختلفة يحمونه وينتمون إليه ويدافعون عنه بالروح والدم.

استيقظ الحكيم من غيبوبته،

ليجد نفسه ممددًا فوق هضبة صخرية تُطل على أسوار إحدى ممالك العالم السُفلي، كانت المملكة تنهض فوق أرض واسعة وقد أُحيطت بأسوار شاهقة الارتفاع.

نظر الحكيم نحو بوابة السور فوجد هذه العبارة منحوتة عليها:

" مملكة الجن والبن "

كان الأصدقاء يجلسون بالقرب منه .. يتناقشون فيما بينهم حول مسألة معينة .. نهض من مكانه وسار بجسده المُرهق نحوهم حتى إذا وصل إلى بَرقاء المتربعة أرضًا تسلق ساقها وارتاح في حضنها.

أشار عاصف بأصبعه نحو البوابة - بوابة السور - حيث نفر من الحرس الأشداء يعكفون على حراستها، وقال يُكمل حديثًا كان قد بدأه منذ مدة:

- ومُهمتنا الآن تنحصر في تجاوز ذلك السور والبحث عن سرابي داخل أراضي المملكة.

قال طائر العنقاء إكليل:

- أستطيع حمل الحكيم على متني وإنزاله بعد السور.

رفع الحكيم رأسه من حضن بَرقاء وقد بدا عليه السخط والاستياء، قال ولم تعجبه فكرة مجابهة الخطر وحده لا سيما وهو في هذه الحالة الصحية السيئة:

- خطة جميلة يا طائر الشمندر، نتمنى منك عدم مشاركة غيرها.

أخذ الجميع يفكرون بجدوى تلك الخطة،

نعم يستطيع طائر العنقاء إكليل الطيران بالحكيم على بعد ارتفاعٍ عالٍ بحيث لا يراه الحرّاس ثم يختار بقعة آمنة داخل حدود المملكة ويهبط بالحكيم إليها .. بعد ذلك يستطيع الحكيم التوغل وحده داخل مملكة الجن والجِن للبحث عن خيط يقوده إلى مكان سرابي.

كانت خطة جيدة،

غير أن بَرقاء كانت لديها بعض التحفظات عليها:

- إنما مملكة شاسعة الاتساع؛ ومهمة البحث عن سرابي قد تستغرق من الحكيم أسابيعًا وربما شهورًا طويلة، وخلال تلك الأيام سنكون بحاجة للطعام والشراب ومكان آمن نأوي إليه حتى انقضاء المهمة.

وأضافت:

- وإذا افترضنا أننا استطعنا تدبر شؤوننا خلال ذلك الوقت، فما الذي يضمن لنا أن الحكيم لن يتعرض للخطر وهو داخل المملكة لا سيما أنه فأر قد تهاجمه آكلات اللحوم أو يدوسه أحدهم بقصد أو غير قصد.

قال الحكيم وقد تضايق من جزئيتها الأخيرة:

- البقرة لديها وجهة نظر.

- لا تقل بقرة !!

- لقد قُلتِ عني فأر !!

- لا أحد يغضب من الحقيقة !!

- لماذا تغضبين منها إذًا ؟!

قال إكليل الذي كان يهتم دائمًا للمسائل الأمنية:

- اصمتا قبل أن ينتبه علينا حرَّاس البوابة !!

**

التفت أوس نحو الشمالي وسأله:

- ما الذي يجعلك متأكدًا من أن سرابي تتواجد في هذه المملكة ؟!

لقد حصل الشمالي على هذه المعلومة من مصدر موثوق التقاه أسفل بحر ذي النون .. فبينما كان يبحث عن الحكيم المقذوف في ظلمة الأعماق إذ سمع صوتًا يقول:

- اطمئن، إن ما تبحث عنه بخير.

التفت الشمالي نحو مصدر الصوت فشاهد في عمق الظلام عيونًا سوداء تشبه حجرًا مقدس تطالعه، وحين تقدم قليلًا نحوها وجدها كوبرا أفعى الجن تارا.

كانت تارا هي التي أخبرته عن مكان وجود سرابي، ثم أعطته الحكيم الذي كان حينها يرقد في جوفها فاقدًا للوعي .. وأوصته قبل أن تتراجع إلى عمق الظلام وتختفي:

- لا تخبر أحدًا بأنك رأيتني؛ سوف أظهر في الوقت المناسب.

**

عاد الأصدقاء يخططون فيما بينهم ويبحثون عن طريقة لتجاوز السور والبحث عن سرابي داخل مملكة الجِن والبِن .. كانت أغلب الخطط جيدة - نظريًا - ولكنها سرعان ما تفشل عندما يبدؤون بتصورها على أرض الواقع.

لمعت في رأس الشمالي فكرة ما، فقال لهم:

- ما رأيكم أن نجعل سرابي هي من تبحث عنّا بدلًا من أن نبحث نحن عنها ؟!

الجميع في وقتٍ واحد وصوت واحد:

- كيف ؟!

- سأخبركم - وأضاف محذرًا:

- ولكن هنالك مخاطرة كبيرة تنطوي في هذه الخطة.

ثم نظر تحديدًا نحو عاصف والحكيم وقال:

- اسمعاني جيدًا.

٢

المصيدة

وتنفيذًا للخطة، قام عاصف وأمسك الحكيم بين يديه:

- أأنت مستعد ؟!

الحكيم: لا!!

- كرر ما قلت بصوتٍ أعلى !!

- لا!!!!!!!!!!!

عاصف مبتسمًا وهو يتأهب لأن ينطلق:

- جيد، هذه الروح القتالية المطلوبة ! ! !

- إنك مجنون ! !

- لا بأس؛ فالحظ يُحب رِفقة المجانين.

قال ذلك ثم انطلق بسرعة نحو بوابة مملكة الجِن والبِن ليعبرها، ولكن لسوء الحظ كان حرّاس البوابة أقوى مما كان يظن فاستطاعوا إيقافه وإحباط محاولة تسلله.

الحكيم وقد ساوره الإحباط:

- تبًّا يا عاصف، لقد قُبض علينا !!

أخذهما الحرّاس إلى مكان يطلقون عليه اسم (الصَّفد) وهو المكان المخصص لحبس الأسرى والغرباء .. قرر الحرس أن يضعوهما داخل غرفة معزولة يوجد في منتصفها قفص حديدي مسحور يمنع أي شخص داخله من استخدام قدراته الخاصة.

أسند عاصف رأسه على جدار القفص،

كان هنالك ضوء خافت يتسلل من النافذة العالية لغرفة السجن يُظهر الكدمات والجروح التي غطت وجهه بعد أن أوسعه حراس البوابة ضربًا.

ورغم إرهاقه وألمه إلا أنه ابتسم وهو يتمتم قائلًا:

- لقد ابتلعوا الطُّعم.

الحكيم:

- أتظن أن الخطة سوف تنجح ؟

- لا عليك؛ لقد قلت لك بأن الحظ يحب رِفقة المجانين.

كانت هذه خطة الشمالي لهما:

- سوف تقومان بمحاولة فاشلة للتسلل من البوابة.

قاطعه الحكيم حينها:

- عفوًا، هل قلت محاولة فاشلة للتسلل ؟!

- نعم؛ فالخطة تقتضي أن يُقبض عليكما عند البوابة.

- يبدو أن رأسك قد دخله الكثير من أملاح مياه البحر أيها الرجل السمكة.

أكمل الشمالي شرح خطته:

- حين يُلقى عليكما القبض أريدك أيها الحكيم أن تتحدث بصوتٍ عالٍ فينتبه حرس البوابة إلى أنك فأر ناطق .. هل فهمت ؟! .. يجب أن يعرفوا أنك فأر ناطق !!

الحكيم مقترحًا:

- آآ .. هل تريد مني أن أغني لهم ؟!

- لا؛ فنحن لا نريدهم أن يقتلوك بأحذيتهم.

- لم أعهدك قاسيًا إلى هذا الحد من قبل !!

- لا تلمنيّ؛ فقد دخل رأسي الكثير من أملاح البحر.

- حقود كالبعير.

قال الشمالي يُكمل الخطة:

- عندما يتم القبض عليكما عند البوابة أريدك أيها الحكيم أن تقول هذا النص بالحرف الواحد (**تبًا يا عاصف لقد قُبض علينا !!**)

قال عاصف حينها متدخلًا:

- أأنت متأكد بأنهم لن يقتلونا عند البوابة ؟!

- قد يقومون بضربكم ولكن لن يصل الأمر لدرجة القتل؛ فهم حرس رسميون لمملكة الجِن والبِن ويجب أن يأخذوكما للسجن للتحقيق معكما، وهناك .. داخل السجن .. سوف تجدان سرابي.

ثم التفت نحو الحكيم وعاد يذكره بالجزء الأهم:

- لا تنسَ أن تقول: (**تبًا يا عاصف لقد قُبض علينا**)

**

لاحقًا،

وحين انتهى عمل أفراد حرَاسة البوابة ذهب بعضهم كالعادة إلى إحدى حانات المدينة وبدؤوا بتناول أكواب الشراب - كوبًا بعد كوب - حتى أفقدتهم الخمرة عقولهم وانطلقت ألسنتهم بالثرثرة حول الحدث الغريب الذي وقع اليوم..

قال أحد الحرَّاس المخمورين يروي لرواد الحانة ما حدث:

- لقد ألقينا اليوم القبض على شاب وبرفقته فأر ناطق !!

وقام حارس آخر - مخمور - من مكانه يُقلد بسخرية نبرة الفأر الخائف:

- سمعت الفأر بنفسي يقول: (تبًّا يا عاصف لقد قُبض علينا)

وضجت الحانة بضحكات السكارى وراحوا تباعًا يرددون ما سمعوه للتو:

(تبًّا يا عاصف لقد قُبض علينا)

وانتشر ذلك الخبر - خبر الفأر الناطق - بين أفراد شعب المملكة مثلما تنتشر النار في الهشيم، حتى وصل أخيرًا إلى الأذن التي كان الشمالي يستهدفها منذ البداية..

وصل الخبر إلى سرابي،

وقد صُعقت حين سمعت من حولها يرددون:

قال الفأر الناطق: (تبًّا يا عاصف، لقد قُبض علينا)

خلف الغيوم المتراكمة،

وعلى بعد ارتفاع هائل عن الأرض كان طائر العنقاء إكليل يحوم واضعًا مبنى الصَّفد نُصب عينيه؛ فقد كان ذلك هو جزء السلامة في الخطة حيث يتعيَّن عليه القيام بمراقبة المبنى الذي يُحتجز فيه كلٌّ من عاصف والحكيم؛ حتى إذا ما حدث لهما مكروه ما يستطيع التدخل بسرعة لحمايتهما.

**

داخل مبنى الصَّفد

بدأ الحكيم يشعر بالملل؛ فأراد أن يفتح موضوعًا يقتل به ساعات الانتظار المملة:

- أتعرف كيف تتصرف عندما تُصاب بالسُّم يا عاصف ؟

- لا

- يجب أن تملأ بطنك بالكثير من الطعام.

- وكيف سيفيد هذا في التخلص من السُّم ؟

- لن يُفيد

- لماذا أملأ بطني بالطعام إذًا ؟

- كي لا تموت وأنت جائع.

أخذ عاصف نفسًا عميقًا وعاد ينظر نحو النافذة،

وحين طال عليهما الوقت عاد الحكيم مجددًا يبحث عن فعالية أخرى يقصر بها مدة الانتظار:

- أتعلم لماذا سُميت مملكة الجن والإن بهذا الاسم ؟

- لا

- أنا أيضًا لا أعرف.

عاصف وهو يحدق باستياء نحوه:

- منذ متى ونحن معًا ؟

- منذ سنين طويلة

- ألا تظن أنه بات من الواجب علينا أن نفترق ؟

- لا تستطيع؛ أتعلم لماذا ؟

- لماذا ؟

- لأنني عندما أحب أحدًا لا أدعه يذهب.

لم يكن هنالك أحد يستطيع أن يجعله يبتسم في مثل هذه الظروف الصعبة غير الحكيم، رفع عاصف رأسه نحو بصيص ضوء القمر الخافت المتسلل من النافذة وأخذ ينتظر.

عاد الصمت يسود المكان لبعض الوقت حتى جاء الصوت المنتظر يقول:

- ألم أطلب منك أن تنساني إلى الأبد يا عاصف ؟!

التفتا إلى الخلف واتسعت أعينهما؛

لقد نجحت المصيدة.

٣

الحقيقة

لم يختلف شكلها كثيرًا عن آخر مرة رآها فيها الحكيم،
وبرغم ذلك كان يشعر وهو يحدق إلى وجهها بأنه يقف أمام إنسان مختلف

تقدمت سرابي في غرفة السجن حتى لم يعد يفصلها عن القفص سوى أشبار قليلة، حدقت نحو عاصف وقد استطاعت رغم قِلة الإضاءة أن تقرأ في عينيه السؤال الذي قطع كل هذه المسافة لأجله.

قالت كما لو أنها لا تريده أن يُلقي عليها ذلك السؤال:

- إنهم قادمون للتحقيق معكما.

تقدم عاصف حتى وقف أمامها ولم يعد يفصله عنها غير القضبان الحديدية للقفص:

- أحقًا ما يُقال عنكِ ؟!

قالت متجاهلة:

- سوف يأمرون بقتلكما لمحاولتكما اقتحام بوابة المملكة.

لم يكن يكترث تلك اللحظة بشيء غير أن يسألها السؤال الذي تكبد عناء هذه المغامرة الخطيرة لأجله:

- هل وافقتِ على الزواج من الشيطان المملوك ؟

عادت للتجاهل مرة أخرى:

- سأحرركما من هُنا، فتغادران إلى الأبد.

- هل وافقتِ على الزواج من الشيطان المملوك ؟

- سوف يأتون في أي لحظة.

عاصف وهو يركز نظراته الحادة الغاضبة نحوها ويُكرر سؤاله للمرة الرابعة:

- هل وافقتِ على الزواج من الشيطان المملوك ؟!

فتحت لهما باب القفص وقالت:

- يجب أن تهربا من هنا قبل وصولهم.

لم يتحرك عاصف من مكانه وظل ثابتًا يواصل تحديقه إليها.

قال الحكيم:

- لقد قطعنا مشوارًا طويلًا للوصول إليكِ يا سرابي .. لقد كاد بعضنا أن يموت أثناء الطريق .. فإذا كانت هذه التضحية لا تعني لكِ شيئًا، فإنني أسألكِ بحق الصداقة القديمة التي جمعتنا يومًا أن تخبرينا بالحقيقة؛ فلا شيء غيرها سيجعلنا نرحل من هنا.

- فإذا أخبرتكما بالحقيقة ؟!

- نعدك بأن نرحل

قالت:

- نعم؛ لقد وافقت.

كان يستقبل طعنة في ظهره من أكثر الأركان التي كان يعتقد بأنها آمنة هكذا أحس عاصف وهو يسمعها تقول (نعم، لقد وافقت) .. إنها الآن لم تعد زوجته؛ فالرابط المقدس الذي كان يجمعهما قد أُسقط منذ اللحظة التي وافقت فيها سرابي على الزواج من ذلك الشيطان.



صَمت ولم يقل شيئًا؛

ذلك أن خيبته كانت أكبر من أن تستطيع الكلمات وصفها.

قال الحكيم يسألها بناءً على ما يعرفه عن الشياطين المملوكة:

- لقد كانت تكفيكِ مع ذلك الشيطان ليلة واحدة فقط حتى تحرريه من قيوده ويقوم هو بتهريبك من السجن؛ فلماذا لم تعودي إلينا طوال هذه المدة واخترتِ البقاء في الأسفل ؟!!

في تلك اللحظة سمعوا صوت عجلات عربة ما تتوقف خارج مبنى الصَّفد، قالت سرابي وقد أدركت اقتراب الخطر:

- يبدو أنهم جاؤوا للتحقيق معكما.

ثم مدت يديها من بين القضبان وأمسكت وجه عاصف، قرأت عليه بعض التعاويذ ونفثت في وجهه شيئًا من طلاسمها؛ فاختفت من عليه كل الجروح وطابت منه الكدمات:

- يجب أن ترحلا من هنا بسرعة قبل وصول الأمراء.

لم يتزحزح أحد منهما من مكانه؛ فقالت تذكرهما:

- لقد قطعتما لي وعدًا بالرحيل، إن أخبرتكما بالحقيقة.

خرج عاصف والحكيم من باب القفص ولكنهما قبل أن يهربا من مبنى الصَّفَد ويستعينا بطائر العنقاء إكليل ليقودهما نحو طريق الخروج من تلك المملكة قالت سرابي:

- عاصف.

وبالرغم من كل شيء إلا أنها كانت ما تزال قادرة على أن تستدعي الربيع إلى قلبه بمجرد أن تنطق اسمه.

نظر إليها،

فصمتت وكأن قلبها يتردد بين الاعتراف أو الصمت.

قالت أخيرًا:

– أنا غيمتك الممطرة عندما تجف كل بحور الأرض ويهلك جميع من في العالم عطشًا.[7]

كاد أن يقول شيئًا ولكن خطوات الأمراء الذين جاؤوا للتحقيق معهما كانت قد اقتربت كثيرًا من غرفة السجن؛ فكان عليه أن يحمل الحكيم بين يديه ويهرب بسرعة، ولكنه تمهل قليلًا:

– وأنتِ ماذا ستفعلين ؟

– سأهرب أيضًا؛ فأولئك الأمراء يجب ألّا يروني هنا.

– كوني حذرة

قال ذلك ثم غادر بالحكيم من هناك،

بينما ظلت سرابي مكانها.

**

فتح الأمراء باب السجن فجأة فوجدوا أمامهم سرابي.

تقدم أحد الأمراء نحوها وهو ينظر إليها بعينيه الحادة مثل السُّم حتى إذا وصل إليها قال يسألها:

– هل سار كل شيء حسب الخطة ؟

---

٧ اعتادت سرابي في الماضي أن تقول لعاصف هذه الجملة عندما كانت زوجته.

٤

الأرض العلوية، الأصدقاء

عاد الأصدقاء إلى الأرض العلوية،

وأخذوا يتناقشون فيما بينهم حول شأن سرابي حتى وصل عاصف إلى هذا القرار:

- سوف نطلب المساعدة من طاغين.

الحكيم: يا إلهي ما الذي أسمعه، أقلت بأنك ستطلب المساعدة من طاغين ؟!

- نعم؛ فنحن لا نملك القوة الكافية لإقامة الحرب.

- ولماذا تُقام الحرب أصلًا ؟!

- لاستعادة سرابي

- لقد تخلّت تلك الفتاة عنا واختارت البقاء في الأسفل؛ فلماذا نُقيم حربًا لأجلها ؟!

- لم تتخلَّ عنا؛ إنما محتجزة هناك.

- إن كانت محتجزة فلماذا لم تخبرنا إذًا ؟!

- لأنها خافت علينا - وأضاف يُقنعهم: لقد وافقت سرابي على الزواج من الشيطان ليقوم بتهريبها من السجن .. ولا بد أنه بعد ذلك احتجزها في عالمه السُّفلي؛ إذ أنه لا يمكن أن يكون طريق العودة متاحًا أمام سرابي وتختار البقاء بمحض إرادتها في الأسفل.

كان تحليله مُقنعًا: قد تكون سرابي بالفعل محتجزة بالأسفل ولكنها لم تخبرهم بذلك حتى تجنبهم خطورة العودة لإنقاذها، اقتنع الجميع بذلك التحليل ما عدا الشمالي الذي كان يفكر بنظرية أخرى ولكنه في الوقت الراهن آثر أن يحتفظ بها لنفسه.

الحكيم:

- أنا والشمالي لدينا حُلفاء يغنونك عن ذلك النجس.

- رغم أنني أفضل الموت على أن أضع يدي في يد ذلك الشخص، إلا أن الواقع يقول بأننا لن نستطيع إقامة هذه الحرب بدون مساعدة طاغين.

برقاء بفضول:

- لماذا لا أحد غيره يستطيع مساعدتنا ؟

- لأن ممالك العالم السُّفلي لن تسكت بعد اعلاننا الحرب على مملكة الجن والإنس، وسوف تقف جميعها في وجهنا .. لذلك نحن بحاجة للطاغين وحلفائه في مواجهتهم.

- وما الذي يجعلك متأكدًا من أنه سوف يُساعدنا .. بل ما الذي يجعلك واثقًا من أنه لن يُغلق علينا أبواب القصر حين نُصبح في الداخل ويقتلنا ؟

- لأنني سأعطيه شيئًا أهم من قتله لنا.

وقال يخبرهم عن ذلك الشيء: سأعطيه الشرعية الملكية.

الحكيم: آآخ يا راسي !!!

أوس متدخلًا: إنك تتنازل عن الكثير يا عاصف.

- لم أكن أريد هذا المُلك اللعين منذ البداية يا أوس، لقد وجدتُ نفسي ملكًا رغمًا عن إرادتي .. فإذا كان التنازل عنه سوف ينقذ سرايي من الأسر فإنني لن أتردد عن فعل ذلك .. وما كنت لأتردد عن فعل الشيء نفسه من أجل أي واحدٍ فيكم

قال الشمالي:

- إن طاغين الآن هو ملك أبابيل، ولكنه ملك غاصب للعرش.

ثم أضاف يشرح أمرًا لم ينتبه إليه أحد وقد كان أمرًا في غاية الخطورة:

- إعطاءك الشرعية الملكية له يعني أنك بذلك تُنصبه ملكًا شرعيًا على أبابيل .. بمعنى آخر: إنك بذلك تنقل المُلك من عائلة الأباطرة إلى طاغين وذريته إلى الأبد .. وبالتالي فإنك إن حاولت في المستقبل قتله أو أذيته فإنك بذلك تُصبح في عيون الآخرين مُجرمًا مُتمردًا بعد أن كنت في عيونهم بطلًا يطالب بحقه.

وبالرغم من أن إكليل كان يريد استعادة سرابي بأي ثمن، إلا أنه قال محذرًا عاصف من اتخاذه لتلك الخطوة التي سوف تُغير تاريخ مملكة أبابيل إلى الأبد:

- تنازلك عن العرش يعني تخليك عن تنفيذ وصية جدك[٨]

---

٨ أوصى جبّار الأباطرة قبل مماته (في رواية أبابيل) أن يُصبح حفيده عاصف هو ملك مملكة أبابيل من بعده.

قال عاصف متخذًا قراره الأخير:

- أرادني جدي جبّار أن أكون ملكًا .. والمَلك هو من يملك نفسه لا من يجعل نفسه مملوكة إلى العرش؛ سرابي وإن لم تعد زوجتي إلا أنها صديقتنا قبل كل شيء .. ونحن يجب أن ننقذ هذه الصديقة من أسر العالم السُّفلي مهما كلف الثمن

الحكيم:

- تنازلك عن العرش شأن خاص فيك ولن نناقشك عليه كثيرًا، ولكن يا عاصف ماذا عن أولئك الذين حاربوا طاغين وسالت دماؤهم على الأرض من أجلك ؟

- تنازلي عن العرش لا يعني تنازلي عن الدم، أعدك أن آخذ بثأر تلك الدماء يومًا.

- إذا كان الأمر كذلك، فنحن معك.

سار الأصدقاء نحو القصر،

تراقبهم من بعيد كوبرا أفعى الجن تارا بعينيها السوداء الأشبه بحجر مقدس.

٥

قـــصر مـمــلـكـة أبــابـيـل

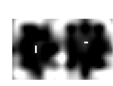
" أسياد البرزخ السبعة "

ما إن اقترب الأصدقاء من القصر حتى فُتحت لهم البوابات الكبيرة ومُدت نحوهم سجادة طويلة حمراء مشى فوقها كبير الوزراء حتى وصل إليهم وقال:

- جلالة الملك طاغين يُرحب بقدومكم.

ثم أضاف وهو ينحني لضيوف الملك:

- اتبعوني من فضلكم.



شعور غريب داهم الأصدقاء وهم يدلفون إلى القاعة الملكية وينظرون إلى المكان الذي كانوا بالأمس القريب فيه أسيادًا، واليوم يأتونه صاغرين يطلبون فيه العون من عدوهم اللدود.

كان طاغين يجلس فوق العرش متحليًا بزينة الملوك،

بينما عاصف وأصدقاؤه يقفون أمامه بملابس بالية مزقتها مغامرتهم الأخيرة.

كان طاغين يعرف سبب قدومه ويعرف الطلب الذي سيطلبه منه ولكن كما ليزيده ذُلًّا وانكسارًا أمام أصدقائه وأمام الحاضرين من أفراد حاشيته قال:

- ما الذي جاء بك ؟

- أريد تحرير سرابي من أسر مملكة الجِن والبِن

أشار طاغين نحو مجموعة كانت تجلس على مقربة من العرش وقال:

- أتعلم من يكون هؤلاء ؟

نظر عاصف نحو المكان المقصود، فشاهد سبعة من الأشخاص لهم هيئات غريبة، وقد بدت عليهم أمائر الوجاهة والسودد والشأن العظيم:

- لا أعلم.

- إنهم أسياد البرزخ السبعة.

وقال يشرح سبب وجودهم في القصر ذلك اليوم:

- سوف يشهدون بتنازلك عن مُلكك وانتقال الشرعية الملكية من عائلة الأباطرة إليّ .. مقابل أن أقوم وحلفائي بمساعدتك في حربك ضد ممالك الأرض السُّفلية، فماذا تقول ؟

- موافق.

**

في ذلك اليوم:

شهد أسياد البرزخ السبعة على تنازل عاصف عن مُلكه، مقابل وقوف طاغين وحلفائه معه في حربه ضد ممالك الأرض السُّفلية.

ثم ومن أجل أن يأمن الطرفان - عاصف وطاغين - على نفسيهما من أن يغدر أحدٌ منهما بالآخر، عُقد لهما اتفاق جانبي: هُدنة تكون مدتها أربعين ليلة يتم تمديدها عند الحاجة إلى ذلك.

وحين انقضت ليلة مراسم نقل الشرعية:

أعطى الملك طاغين للجميع الإذن بالانصراف؛ فخلت القاعة الملكية إلا من إحدى سيدات البرزخ: كانت من الإنس ولكن جسدها يخلو من الجلد والأعضاء الداخلية حيث يتكون فقط من هيكل عظمي أسود تستره بأقمشة واسعة.

ظلت عِزرا تحدق نحو طاغين لبعض الوقت ثم اختفت،

لم تقل شيئًا؛ ولكن نظراتها قالت بأنها تحمل سرًّا عظيمًا قد يقلب العالم رأسًا على عقب.

١

ممالك التـنـين
" الاستدعاء "

صباحًا،

وداخل غابة غزيرة الأشجار شاسعة الاتساع تقع داخل حدود ممالك التنين تُدعى (غابة هيرآ سيليا) وقف غيَاث في جهة وابنته في الجهة المقابلة.

لقد قطع بنورس شوطًا طويلًا في التدريب:

علمها خلال ذلك الوقت أُسس القتال وجعلها تُتقن الكثير من مهارات المراوغة وأساليب البقاء .. وكان قد خطط صباح اليوم أن يجري معها مناورة قتالية حقيقية يختبر فيها قدرتها على تنفيذ ما علمها إياه في الأيام السابقة:

- هيا، ابدئي الهجوم.

كانت نورس تريد التدرب على القتال؛ لتصبح أقوى ولكن ليس بهذه الطريقة:

- الابنة لا تُهاجم أباها.

- أنتِ لا تهاجمينني فعلًا، إنما لأغراض التدريب فقط.

- لا، حتى ولو كان !!

- عليكِ أن تضعي في الحسبان أن الأرض دوارة؛ والقلوب مُتقلبة يا ابنتي .. وأن أصدقاء الأمس قد يُمسون أعداء اليوم .. وأعداء اليوم قد يُصبحون أصدقاء الغد

لم يستطع عقلها أن يتصور ما قاله والدها:

- لقد أخبرتني ذات مرة أن الشمس تبعد مسافة هائلة عن أرضنا أليس كذلك ؟!

حرك رأسه بعلامة (نعم) .. فقالت:

- ورغم تلك المسافة إلا أن الشمس أقرب بكثير من قدوم يوم قد تكون فيه عدوي.

نظر غيّاث إلى عينَي ابنته البُندقيتين الممتلئتين بالحنان والبراءة وتمنى في تلك اللحظة أن يكون بوسعه بعد الموت أن يُدفن إلى الأبد فيهما.

قال:

- طالما أنكِ حية؛ عليك أن تتوقعي الأسوأ دائمًا.

هبّت نسمة هواء باردة ولطيفة حركت معها أوراق أشجار الغابة الخضراء.

قال غيّاث يأمرها:

- اهجمي.

- لا أريد.

- عليكِ أن تكوني مستعدة عندما تواجهين عدوًا حقيقيًا، فالأعداء لن يعطوكِ فرصة للتدرب.

ظنّ أنه اقنعها بكلامه؛ فقال يحثها:

- اهجمي

- لا أريد.

كان يعرف أن ابنته حمارة صغيرة؛

لذلك كان قد فكر مسبقًا بفكرة تحثها على النِّزال.

فقام بتكوين قذيفة نار بين يديه وأطلقها نحو الكلب رعد،

اختفت نورس حينها في غمضة عين .. وعندما ظهرت بعد لحظة كانت قد جعلت من نفسها درعًا يحول بين القذيفة وبين صديقها الكلب.

أرسلت إلى والدها نظرة مستنكرة، بينما تجاهل غيّاث نظراتها وقال يأمر الكلب:

- تعال إلى هنا يا رعد.

طأطأ الكلب رأسه ومشى نحو سيده خائفًا .. وفي تلك الأثناء بدأ غيّاث بتكوين قذيفة أخرى في يده .. قال وهو يتأهب لتوجيهها نحو رعد:

- دافعي عنه إن كنتِ تحبينه فعلًا.

ثم أطلق القذيفة نحوه.

اعترضتها نورس ولكن ليس بجسدها هذه المرة، بل بقذيفة نار مضادة.

ندت عن غيّاث ابتسامة واسعة .. ليس لأنه نجح في جعلها تتفاعل معه بل لأنه رأى عينها اليسرى وقد تحولت إلى اللون الأحمر إيذانًا بقيام المعركة

- ماذا ستفعلين ؟

- أمنعك من أذية صديقي

قال كما لو أنه يريد أن يزيد من غضبها:

- أنت أضعف من أن تحمي ذبابة يا ابنتي.

كانت نورم، من أولئك الأشخاص الذين يستطيعون تحويل الكلام السلبي إلى طاقة إضافية تساعدهم على تحقيق الهدف؛ لذلك فإنها لم تحزن لسماعها تلك الكلمات بل ابتسمت بتحدٍّ وقالت تردد بينها وبين نفسها تعويذة بسيطة وسهلة لا يتطلب لمن يرددها بأن يكون ساحرًا ليستفيد منها:

- آبرآ كدآبرآ، أنا التي تصنع ما تقول.

ثم اختفت، وطال اختفاؤها كثيرًا

أكثر ما كان يثير إعجابه بمهارتها هو أنها كانت تجيد إخفاء نفسها بشكل كامل .. بحيث يصعب على خصمها أن يتنبأ بمكانها وهي مختفية

أما غيّاث فقد كانت قوته العالية تجعله قادرًا على تحديد مكانها وهي مختفية، ليس ذلك فحسب بل كان يستطيع بقوة التنبؤ خاصته أن يتوقع حركتها القادمة أيضًا؛ ورغم ذلك إلا أنه تظاهر بالجهل حتى تكسبها مزيدًا من الثقة بنفسها.

أطلقت نورس عليه قذيفة أخطأ - عمدًا - في صدها فسقط مكانه مدعيًا تأثره بالضربة؛ الأمر الذي دفع نورس إلى أن تركض نحوه بفزع لتطمئن عليه، ولكنها ما إن اقتربت منه حتى نهض من سقوطه المزيف وطرحها أرضًا.

ثم اقترب منها ووضع إصبعه على عُنقها مثل سكينة وقال:

- **أهم درسٍ للبقاء، هو ألّا تثقي بأحد.**

وأضاف بعد قليل وهو يضغط على عنقها أكثر: **تذكري دائمًا أنك تستطيعين أن تجنبي قلبك الكثير من طعنات الغدر عندما لا تضعين ثقتك بأحد.**

همست وعيناها تغرقان بالدموع:

- ولكنك أقرب الناس إلى قلبي.

-إن أقسى الطعنات لا تأتي إلا من أقرب الناس إلى قلبك.

نهض غيّاث بعد ذلك وساعد نورس على النهوض، ثم فجأة ودون سابق إنذار قام بدفعها للخلف؛ لتسقط متألمة.

ثم صاح عليها:

- يجب أن تكوني مستعدة للمفاجآت؛ فالأعداء لن يرسلوا إليكِ رسالة يخبرونكِ فيها عن موعد هجومهم !!

لقد كانت تتلقى تدريبًا أقسى مما تحتمل فبكت لفرط الضغط الذي تعيشه .. أما غيّاث فإنه كان يذوب من الداخل بسبب دموعها تلك لكنه يريدها أن تكون قوية ومستعدة دائمًا.

ظلت نورس متمددة على الأرض، مما دفع غيّاث للصراخ عليها:

- أعلم أنكِ تنتظرين مني المساعدة، تنتظرين مني أن أمد يدي لأساعدك على النهوض .. تنتظرين مني أن أُعانقك وأمسح عن عينيك الدموع .. ولكن الأمور في العالم الحقيقي لا تسير بهذه الطريقة؛ فغدًا سوف تكونين وحدك .. ووحدك عليكِ أن تنهضي عندما تعرقلك الحياة وتسقطين.

بدأ هتان مطر خفيف يتساقط فوق أشجار الغابة.

قال غيّاث وقطرات المطر تُبلل وجهه الحاد والأشبه بمخلب تنين:

- إذا سقطتِ مرة، فماذا ستفعلين ؟

- لن أسقط.

- كلنا سوف نسقط ذات يوم؛ إنها الحياة.

وعاد يسألها:

- إذا سقطتِ مرة، فماذا ستفعلين ؟

- سأنهض.

- وإذا سقطتِ للمرة الثانية، فماذا ستفعلين ؟

- سأنهض.

- والثالثة ؟

- سأنهض.

- والرابعة ؟

- سأنهض

- والخامسة ؟

- سأنهض.

- ماذا عن المرة الألف ؟

- سأنهض للمرة الألف !!

- الذي لا يسقط هو شخص بليد لا يحاول فعل شيء في حياته، تذكري أنه لا عيب في السقوط يا ابنتي، العار يلتصق فقط بأولئك الذين لا ينهضون.

في تلك الأثناء حدث شيء لم يتوقع حدوثه؛ لقد اقتحم شخص ما ساحة التدريب وقد أحسَّ غيَاث بالفزع لرؤيته وهذا ما جعله يسأله بنبرة غير مرحبة:

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا سَحاب ؟

سار سَحاب نحو نورس الممددة أرضًا:

- هل هذه ابنتك التي تركت خدمة الملك لأجلها ؟

غيَاث محذرًا:

- لا تقترب منها أكثر.

لم يُنصت سَحاب للتحذير واستمر في تقدمه؛ الأمر الذي جعل غيَاث يقول له:

- أعلم أنك أصبحت ظلًا للتنين بعدي؛ وقد حصلت على هذا المنصب بقوتك وجدارتك، ولكن إن تحركت خطوة واحدة إضافية تجاه ابنتي فإنك لن تعود إلى القصر بصفتك حارسًا الملك، بل جارية تخدم في بلاط الملك.

توقف سَحاب مكانه؛

فهو يُدرك الورطة التي قد يُقحم نفسه فيها إن قرر غيَاث مواجهته.

قال له غياث:

- التفت الآن نحوي وأخبرني عن سبب قدومك إلى هنا.

- الملك نفسه يطلب لقاءك.

- لقد تركت خدمته قبل وقت طويل.

- أتظن أنه لا يعلم ذلك؟! ..

- لماذا يطلب لقائي؟

- سوف يخبرك بنفسه حين تلقاه.

سار غياث نحو ابنته ومد لها يده ليساعدها، ولكنها تمسكت بيده وقالت:

- أستطيع النهوض وحدي.

ابتسم شيء في داخله، وقال يوصيها وهو يبتعد:

- عودا إلى المنزل أنت ورعد، وابقيا فيه ريثما أعود إليكما.

ثم ذهب مبتعدًا من هناك نحو القصر،

دون أن يعلم بأنها المرة الأخيرة.

٢

غابة هيرآ سيليا
" الأرين "

نهضت نورس من مكانها، تمتمت بصوت مرهق:

- اتبعني يا رعد.

وبينما كانا يسيران بصمت وسط ممرات الغابة المحفوفة بجداول الماء والأشجار الكثيفة يقصدان المنزل، إذ تناهى إلى سمعهما أصوت أقدام تركض نحو الجهة الجنوبية من الغابة حيث المكان الذي يُطلق عليه اسم (الأرين)

اختلست نورس النظر إلى أصحاب تلك الأقدام فشاهدت رجالًا عددهم خمسة، كانوا ضِخام الجثة كأنهم وحوش صغيرة تركض خلف كنز هارب.

وبالرغم من أن والدها كان قد حذرها من الغرباء ومن الذهاب تحديدًا إلى المنطقة الجنوبية من الغابة إلا أن فضولها أنساها كل تلك التحذيرات وقررت أن تذهب لتُلقي نظرة.

شد رعد بأسنانه على لباسها وكأنه يُذكرها بشأن تحذير والدها؛ فقالت:

- عُد إلى المنزل إن أردت، سأذهب لأُلقي نظرة سريعة وأعود.

أطلق رعد صوت نبحة مكتومة، فقالت وقد فهمت مراده:

- لا تقلق، سنعود قبل أن يعود والدنا.

- .. .. ..

وعندما رأته مترددًا بين الإقدام أو التراجع قالت له:

- لن يخسر العالم شيئًا إن قمنا بهذه المغامرة السريعة أيها الأسد الأسود.

نبح رعد متحمسًا حين سمعها تُطلق عليه لقب الأسد الأسود وراح لفرط الحماس يركض قبلها نحو المنطقة الجنوبية حيث الأعشاش التي تضع فيها إناث التنانين بيضها

من خلف حشائش الغابة الكثيفة راحت نورس تختلس النظر بحذر نحو أولئك الرجال الضِّخام الجثة، وقد شاهدت أحدهم وهو يُمسك بيضة حمراء داكنة اللون.

كانت البيضة كبيرة بحيث إن الرجل كان عليه أن يمسكها بيديه الاثنتين .. وكان شكلها غريبًا؛ فهي ليست مَلساء عادية بل كانت بيضة تُغطيها حراشف خشنة فيغدو شكلها وكأنه فاكهة أنناس ناضجة.

قال الرجل الضخم الجثة:

- لقد أضعنا شهورًا طويلة وخسرنا الكثير من الرجال في سبيل قتل التنينة الأم .. لو كنا نعلم أننا نفعل كل ذلك لأجل بيضة واحدة لما أرهقنا أنفسنا منذ البداية

ردَّ عليه رجل آخر وقد بدا أنه زعيم الصيادين:

- لا تنسَ أنها حمراء؛ وهذا يعني أنها تضم بداخلها فرخًا يملك قدرات عالية .. اطمئن؛ ما يزال بإمكاننا أن نجني ثروة لا بأس بها إذا ما عرضنا هذه البيضة النادرة على الشخص المناسب

وأضاف زعيمهم:

- دعونا نتحرك من هنا قبل أن ينتبه علينا أحد الحرس.

لقد حظيت نورس بحياة يملؤها الحبّ؛

كان ذلك بفضل والدها غيّاث الذي عمل جاهدًا ليعوض عنها غياب الأم.

ولكن غياب الأم هو الفراغ الوحيد الذي لا يمكن لشيء أن يعوض مكانه؛ لذلك فإنها في كل مرة تخلد فيها إلى النوم كانت تُغمض عينيها وبقلبها أمنية واحدة: أن تدخل الجنة.

وكانت جنتها هي حضن أمها

وهذا ما جعلها الآن تنظر لذلك المشهد من زاوية مختلفة؛ لقد قام أولئك الرجال بحرمان فرخ التنين الراقد داخل البيضة من والدته؛ وهذا وحده كان سببًا كافيًا لأن تُنزل عليهم العذاب لأجله.

عضَّ رعد بأسنانه على ثيابها، وحين نظرت إليه عرفت ما يريده منها فقالت:

- ابقَ هنا، ولا تخرج من مكانك.

همَّ الصيادون الخمسة بمغادرة الأرين عندما تفاجؤوا بفتاة صغيرة بدت أنها ما بين السابعة أو العاشرة من عمرها تعترض طريقهم وتُرسل نحوهم نظرات حاقدة.

وضع زعيم الصيادين البيضة داخل حقيبة جلدية يلفها حول جسده، فعل ذلك بهدوء وكأنه لم يكن يريد لتلك الصغيرة أن تكون شاهدة على حيازته البيضة.

قال وهو يغتصب ابتسامة زائفة:

- أأضعتِ والديكِ أيتها الصغيرة ؟

نورس:

- لقد رأيتُ كل شيء، ولن ينجو أحد منكم بفعلته.

لم يأخذوا تهديدها ذاك بعين الاعتبار؛ فهي بالنسبة إليهم ليست سوى فتاة صغيرة، ولكنها في الوقت ذاته قد شاهدت شيئًا ما كان ينبغي عليها أن تشاهده؛ فقال أحدهم:

- الصغار يتحدثون .. وقد ينتقل حديثها من فم إلى آخر حتى ينتهي به المطاف إلى أسماع أحد حرَّاس المملكة؛ فندخل في ورطة كبيرة.

اقترح صياد آخر:

- يبدو أنها سوف تصبح جميلة حين تكبر، أراهنكم أن التجار سوف يتسابقون لشرائها لو قمنا بعرضها في سوق الجواري والعبيد.

قال الزعيم وقد كانت لديه وجهة نظر أخرى: ربما؛ يبحث عنها أحدهم ويكتشف أمر ما فعلناه .. هذه الفتاة يجب أن تُدفن ويُدفن سرنا معها.

ثم التفت نحو أحدهم وأمره بأن يقبض عليها.

. . .

تقدم نحوها صياد ضخم الجثة أبيض اللون مُصاب بالبُهاق في جلده، ما أن اقترب منها حتى حاولت نورس أن تستخدم قوتها الخاصة في الاختفاء ثم الهجوم عليه ولكنها - ولسبب غامض - لم تنجح في ذلك ووقعت في قبضة يده.

حاولت مجددًا بكامل إصرارها أن تستخدم قوتها ولكن دون فائدة، وتذكرت الآن - بينما هي أسيرة في يده - كلامًا كان غيّاث قد قاله لها ذات مرة يُفيد بأنها لن تستطيع استخدام قوتها عند الحزن:

- لا تحزني؛ إن الحزن نقطة ضعفك.

وجدت نورس فجأة نفسها عزلاء - بدون قوتها - في مواجهة أولئك الرجال الضخام الخمسة ولكنها لم تستسلم وقامت بعضِّ يد الصياد الأحمق مما جعله يُفلتها من قبضته.

هي تعلم أنها لا تستطيع الهرب؛

فبدون قوتها الخاصة سوف يكون من السهل على أولئك الرجال اللحاق بها بسهولة؛ لم يكن أمامها إلا أن تفعل الشيء الذي علمها إياه والدها:

" ليس من الضرورة أن تكوني الأقوى؛ فهنالك دائمًا من سيغلب عليكِ بقوته .. المهم هو ألّا تستسلمي أبدًا؛ فأن يُقال ماتت بشجاعة خيرٌ ألف مرة من أن يُقال جعلها جُبنها تعيش "

فتشت عن سلاح تستخدمه لمقاتلة الصيادين الخمسة،

وعندما لم تجد نورس شيئًا نافعًا تستخدمه فإنها انحنت والتقطت فردة حذائها.

قام الصياد الأحمق بمهاجمتها،

فحاولت أن تناور هجمته ولكنها كانت أبطأ مما هو مطلوب فوقعت بين يديه مجددًا؛ ساعدها اقترابها منه - بذلك القدر - أن تُسدد صفعة قوية بحذائها لوجهه

فقام الأحمق كردة فعلٍ عكسية بصفعها على وجهها بقوة،

كادت أن تبكي لشدة الألم؛ ولكنها قررت أن تحرمه لذة الانتصار فنظرت إليه مبتسمة.

غضب الأحمق فأنزل عليها وابلًا من الصفعات المتتالية.

في تلك الأثناء:

كان الكلب رعد يرتعد خائفًا خلف الحشائش،

وبالرغم من ذلك إلا أنه لم يكن قادرًا على مواصلة الاختباء وهو يرى صديقته بتلك الحالة السيئة؛ فخرج من مكانه واندفع نحو الصياد الأحمق يُهاجمه

ولكنه قبل أن يصل إليه

اعترضه صياد آخر بسرعة وطعنه في رقبته.

ابتسم رعد حينها ولكن ليس فقط لأنه سمع كلمة (البيت)
بل لأن الموت على صوتها كان هو أكثر شيء يريده ويتمناه تلك اللحظة.

قال الزعيم يأمر أفراده:

- اقتلوها، وادفنوها مع كلبها في حُفرة عميقة.

وتنفيذًا للأمر:

أخرج الأبله سكينة من جيبه،

ثم وضع حافتها الحادة على عُنق نورس

٣

السمراء الداكنة البشرة

وقبل أن يقتلها

تدخلت قوة خارجية وأوقفت الصياد تلك اللحظة

لم يتسنَّ للصياد الأبهق أن يرى الشخص الذي أوقفه؛

ذلك أنه فارق الحياة قبل أن يتمكن من رؤية قاتله .. هوى جسد الصياد منهارًا .. وقبل أن تلامس جثته الأرض كانت أجساد الصيادين الأربعة الباقين قد سقطت أرضًا معه

**

لم يكن الشخص الذي أنقذها هو والدها غيّاث .. وما كان يهمها تلك اللحظة أن تعرف .. كل ما كان يهمها فقط هو أن تركض نحو رعد لتطمئن عليه

كان جسده هامدًا حين تحسسته، قالت تهمس في أذنه:

- انهض، سنعود إلى البيت

وحين لم يُبدِ تجاهها أي حركة، التفتت نحو الشخص الذي أنقذها فكانت فتاة سمراء داكنة البشرة لها شعر خشن تشده إلى الخلف وتُبقيه على هيئة ذيل حصان.

قالت نورس وكأنها تشكو إليها أمرًا يؤلمها:

- ما به، لماذا لا يرد ؟

تربعت الفتاة السمراء أرضًا - بالقرب من رعد - مدت يدها نحوه وأغلقت عينيه:

- لأنه مات.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تختبر فيها نورس شعور الفقد؛ فأحست بالاختناق وكأن أحدهم يُقحم رأسها في كيس من الطحين ويطلب منها أن تتنفس.

قالت وعقلها الصغير يرفض الفراق الأبدي:

- دعينا نأخذه إلى أحد الحكماء؛ علّه يشفيه من الموت.

- الموتى يتركون أجسادهم ويرحلون لمكان آخر.

- ومتى يعودون ؟

- إنهم لا يعودون، بل ينتظرون قدومنا إليهم.

حدقت نورس إلى رعد وعيناها تغرقان بالدموع:

- هل يتوجع الأموات ؟

- الأموات لا يتوجعون، الأحياء فقط من يتوجعون لفقدهم.

كانت نورس ترى تلك الفتاة السمراء لأول مرة .. ولكنها على نحو غامض أحست تجاهها بأمان غريب؛ فأمالت رأسها الصغير إلى كتفها وسألتها:

- ما اسمك ؟

- ريحانة ابنة مَيثم.

- أكانت المصادفة هي من قادتكِ إلى هنا يا ريحانة ؟

- بل والدك.

- تعرفين والدي ؟

- كان والدكِ غيّاث قائدي في الفرقة المخصصة لحماية الملك، وقد طلب مني أن آتيَ لأتفقدك

- شكرًا لأنك أتيتِ.

كانت ريحانة تُدرك أن رعد لم يكن لنورس كلبًا أليفًا اعتادت عليه فقط، بل يُعد بالنسبة إليها بمثابة أحد أفراد العائلة؛ لذلك أمسكت يدها برفق وقالت:

- كل شيء سيمضي.

- ولكن هذا الألم أكبر من أن يمضي.

صمتت ريحانة وكأن تلك الجملة ذكرتها بشيء ما:

- عندما كنت بمثل عمرك مات والدي يا نورس .. أذكر حينها أنني قلت الجملة ذاتها (هذا الألم أكبر من أن يمضي) ولكن أتعلمين ماذا حدث ؟!

- ماذا ؟

- الوقت جعله يمضي.

- هل يجعلنا الوقت ننسى ؟

- لا، ولكنه يجعلنا نتعايش مع الحزن.

كان هنالك سؤال يؤرق قلبها ويقض مضجعه:

- كيف أتعايش مع حقيقة أنني من تسبب بموته ؟

- لا أحد يموت بسبب أحد، ولا أحد يموت قبل وقته يا نورس فحتى لو عدنا إلى البيت لكان رعد سوف يموت في الوقت نفسه ولكن بطريقة أخرى.

- أتظنين ذلك ؟

- بل متيقنة منه تمامًا مثل ما أنا متيقنة الآن بأنني أحادث أجمل قملة صغيرة في هذا العالم.

رغم حزنها الشديد إلا أن طيف ابتسامة حزينة ارتسم على وجه نورس حين سمعتها تناديها (بالقملة الصغيرة) .. وحين جاء وقت الوداع حفرتا له قبرًا وأنزلتاه إليه.

قالت نورس تودعه:

- آسفة، سأذهب إلى البيت بدونك هذه المرة.

أمالت عليه التراب حتى أغلقت القبر، وقبل أن ترحل لم تنسَ أن تأخذ نابه الطويل الذي تدحرج من فمه عندما سقط؛ لتجعل من ذلك الناب لاحقًا قلادة تربطها حول عنقها العمر كله.

سارت الاثنتان من هناك،

ولكنهما لم تبتعدا كثيرًا حتى شاهدت نورس شيئًا جعلها ترمش بعينيها عدة مرات؛ لتصدق أن ما تراه أمامها حقيقة وليس وهمًا يصوره لها الخيال.

(كان رعد يقف أمامها)

٤

رعد

كان جزء منها - من نورس - يتمنى لو أن ما تراه حقيقة، ولكنَّ جزءًا آخر بداخلها يخبرها بعكس ذلك؛ فقالت تسأل ريحانة لتحسم الأمر:

- هل ترين ما أراه ؟!!

قالت ريحانة وقد خمنت ما يحدث:

- أهو رعد ؟

- نعم، هل تستطيعين رؤيته أنتِ أيضًا ؟

- لا، ولكنني أستطيع أن أخبرك عن سبب قدومه.

وبينما نورس ما تزال تحدق إلى الكلب الأسود بذهول وعدم تصديق، قالت ريحانة:

- هنالك شيء ما يمنع روحه من المغادرة.

رددت نورس ذلك الكلام الغريب:

- شيء ما يمنع روحه من المغادرة ؟

- نعم، وستظل روحه عالقة هنا حتى يتم تحريرها

- كيف تُحرر ؟

- بأن تنفذي لها طلبها الأخير.

- وما هو طلبها الأخير ؟

- لا أعلم، ولكن حاولي أن تكتشفيه بنفسك

- حسنًا، سوف أحـ .. .. ..

وفجأة صمتت نورس ولم تكمل جملتها.

سألتها ريحانة:

- ما بك ؟

- هنالك روح أخرى، جاءت تتبع أثر رعد.

- عن أي روح تتحدثين ؟!

- إنما الأم .. روح أنثى التنين التي قتلها الصيادون.

كانت روح أنثى التنين ضخمة للغاية فتبدو نورس أمامها وكأنها دمية صغيرة، ظلت أنثى التنين تحدق إلى نورس بصمت وفي نظراتها طلب غامض.

**

ثم فجأة، راحت نورس تركض بسرعة نحو مكان ما، وكأنها بدأت تلاحق شيئًا.

صاحت عليها ريحانة:

- مهلًا، إلى أين تذهبين ؟!

نورس وهي تركض:

- خلف رعد وأنثى التنين؛ إنهما يطلبان مني اللحاق بهما.

قادتها الأرواح إلى بقعة الأرض التي تتمدد فوقها جثث الصيادين الخمسة،

وأخذت نورس تتأمل رعد وهو يسير بين الجثث متجهًا نحو جثة زعيم الصيادين ويقف عندها ثم يلتفت إليها وكأنه يطلب منها أمرًا.

قالت:

- لم أفهم شيئًا يا رعد.

أشار لها برأسه نحو الحقيبة، وكأنه يطلب منها أن تفتش هناك.

مدت نورس يدها إلى داخل حقيبة زعيم الصيادين وأخرجت من جوفها بيضة التنين الحمراء .. وبينما كانت نورس تحدق بعلم فهم إلى البيضة، إذ اقتربت روح أنثى التنين منها، حتى بات بوسع نورس أن تلمح انعكاس وجهها المدور في بؤبؤي عينيها.

قالت نورس وقد فهمت أخيرًا طلبها:

- سأهتم بفرخك، وأنتِ سوف تهتمين بأخي، اتفقنا ؟

رمشت أنثى التنين بعينيها،

فكانت تلك العلامة البسيطة بالنسبة إلى نورس بمثابة قول التنينة الأم:

" نعم، اتفقنا "

٥

ممالك التنين العظمى
" القصر الملكي "

أدرك غيّاث أن هنالك أمرًا عظيمًا يقف وراء الاستدعاء؛ كان ذلك واضحًا من المشهد الذي يراه أمامه الآن؛ فهنالك نفر من أمراء الحرب عند بوابة القاعة الملكية وعلى رأسهم الملك يمان يقفون- في انتظار قدومه.

ورغم حساسية الموقف - الذي لا يملك غيّاث بعد عنه أدنى فكرة - إلا أن الملك يمان حياه بعناق حار يكشف مدى شوقه إليه، ثم قال له وهو يسير إلى جواره داخل القاعة:

-كيف حال مملكتك الصغيرة يا ترى ؟!

غيّاث يعلم أن الملك لم يطلب لقاءه من أجل الاطمئنان على حال ابنته؛ ويعلم أنه لا يفتتح معه الحديث بتلك المقدمة اللطيفة إلا إن كانت هنالك مصيبة يُمهد لتقديمها:

- إنها بخير يا جلالة الملك.

- أخبروني أنك وابنتك كنتما معًا في غابة هيرآ سيليا حين وصلك أمر الاستدعاء.

- وقد أتيتُ من فوري أُلبي طلبك.

- وكيف تترك ملكتك في غابة خطيرة مثل تلك دون حماية ؟!

- لقد طلبتُ من إحدى حارساتك فور وصولي أن تذهب لتتفقد أمرها.

ابتسم الملك يمّان وكأنه عثر على ما كان يبحث عنه:

- رغم ابتعادك عن القصر، إلا أن ولاء الكثير من المحاربين ما يزال خالصًا لك يا غيّاث.

- فضيلة الولاء يا سيدي أنه لا يعترف بالمسافات أو الزمن.

- ولهذا الأمر تحديدًا طلبت استدعاءك اليوم

مكث غيَاث ينتظر بقية الحديث،

بينما أمسك الملك عن الكلام وكأنه تردد في إخباره عن السبب، نهض الملك أخيرًا من فوق عرشه وسار حتى وصل إليه، وضع يده على كتفه مربتًا وقال:

- آسف يا بني، ولكننا مضطرون إلى ذلك.

ثم غادر القاعة الملكية.

كان غيَاث الذي قضى عمرًا طويلًا في خدمة الملك يمَان يعرف معنى ذلك التصرف جيدًا: إن هنالك طلبًا يريد الملك منه القيام به ولكنه يخجل من قوله؛ فغادر القاعة ليترك لمن فيها من الأمراء مهمة إخباره بالطلب.

نظر غيَاث نحو ظل التنين سَحاب وقال:

- يُستحسن ألّا ينطوي الأمر على مهمة خطيرة.

قال سَحاب يشرح له الموقف:

- سوف تُقيم مملكة أبابيل حربًا كُبرى ضد ممالك الأرض السُّفلية، ولقد تلقينا صباح اليوم بصفتنا (حليفًا حربيًّا لهم) رسالة استدعاء عاجلة للوقوف إلى جوارهم في الحرب.

قال غيّاث أخيراً وقد خمن سبب استدعائه:

- وتريدون مني أن أقود الجيش الذي سوف يحارب إلى جوار مملكة أبابيل ؟!

- نعم .. ولا .. في الوقت نفسه.

- لم أفهم.

- نعم نريد منك قيادة الجيش .. ولكن ليس الذي سيقاتل إلى جوار حليفتنا الحربية أبابيل .. بل جيش غير نظامي سوف يقاتل ضدها ويضمن هزيمتها في الحرب

٦

الخطة الغادرة

قال غيَاث وقد اختلطت عليه الأمور:

- ولماذا تريدون إرسال جيش غير نظامي لقتال أبابيل ؟!

- لأننا لا نريدها أن تنتصر في هذه المعركة.

وبعد لحظات متبادلة من الصمت قال ظل التنين سَحاب يشرح الأهداف السياسية التي تريد حكومة ممالك التنين تحقيقها من وراء تلك الخطة الغادرة:

- إذا انتصرت مملكة أبابيل في حربها؛ فإنها ستقوم باحتلال جزء كبير من الأراضي السُفلية وهذا سيجعلها تحوز ثروات هائلة من السلاح والمال والمقاتلين؛ فتصبح قوة عُظمى تشكل تهديدًا على مصالحنا في المنطقة وربما على ممالكنا في المستقبل أيضًا.

- ولماذا وقع اختياركم عليَّ ؟

- إن لك شعبية عالية بين أفراد الجيش يا غيَاث؛ الكثير من المحاربين يحترمونك ويدينون لك بالولاء المطلق؛ لذلك نريد منك أن تُشكل جيشًا غير نظامي قوامه خمس مئة ألف محارب تقودهم بنفسك نحو الأرض السُّفلية لتقف إلى جوار ممالك الأسفل ضد أبابيل.

غيَاث يريد البقاء بسلام إلى جوار ابنته،

ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد الذي جعله يقرر رفض المهمة، كان هنالك سبب آخر فتلك المملكة - أبابيل - كان لها مكانة خاصة في قلبه:

- أنا لن أشارك في هذه الخطة القذرة.

كانت الحكومة العميقة لممالك التنين قد اختارت غيَاث تحديدًا لثلاثة أسباب

السبب الأول: لأنه يملك ولاءات الكثير من المحاربين.

السبب الثاني: لقوته المَهيبة، وكفاءته العالية في التخطيط وإدارة الحروب.

والسببُ الثالث والأهم هو:

لأنه محارب مُعتزل؛ أي أنه لا يُحسب على الحكومة الرسمية لممالك التنين؛ فإذا افتُضِحت خطتهم يستطيعون التبرؤ منه وإلصاق تهمة الخيانة عليه.

**

قال سَحاب:

- يجب أن توافق يا غيَاث.

ردَّ غيَاث وهو يُعطيهم ظهره ويتحدث إليهم بعدم مبالاة:

- لقد اعتزلت الحروب منذ مدة؛ وقيادة الجيوش لم تعد مهمتي.

ثم أضاف بنبرة متحدية وهو يتجه صوب بوابة القاعة الملكية للمغادرة:

- إذا كان لدى أحدكم اعتراض؛ فليجرب منعي من المغادرة.

**

حين غادر غيَاث القاعة الملكية وجد أمامه واحدة من أعز أصدقائه، إنها ريحانة ابنة مَيثم .. فابتسم رغمًا عن الكدر الذي كان واضحًا على وجهه وسألها:

- هل نورس ورعد بخير ؟

- لقد أعدتُ نورس إلى المنزل وإنها بخير.

- ورعد ؟

قالت بنبرة عزائية: (لقد ذهب إلى مكان أفضل) ثم أخبرته بما حدث للكلب رعد، وكيف مات بشجاعة في الغابة وهو يدافع عن نورس.

**

داخل القاعة الملكية:

امتدت يدٌ نحو سَحاب من خلف إحدى الستائر، كانت اليد عبارة عن هيكل عظمي أسود، تُمسك بين أصابعها بقطعة جلدية .. قالت صاحبة اليد:

- إلحق بغيَاث، وأعطِه هذه القطعة.

**

وقبل أن يغادر غيَاث بوابة القصر اعترض سَحاب طريقه وهو يمد نحوه القطعة الجلدية .. وما أن أمسك غيَاث بتلك القطعة وقرأ ما فيها حتى بدأت يدها بالارتعاش

قال بعد لحظات وهو يطوي قطعة الجلد وينظر إليه:

- متى تريدون مني التحرك بالجيش ؟!

٧

السر العميق لغياث

مساء اليوم التالي: اصطحب غيَاث ابنته لمنزل في أقصى القرية يسكنه أحد معارفه، كان رجلًا كبيرًا بالسن اسمه (ميلاد) .. كان غيَاث يثق به وقد اعتاد أن يُناديه من باب الاحترام بالجد

وبينما هُما يسيران في الطريق نحو منزل الجد إذ توقفت نورس فجأة وقد أفلتت من يدها أرضًا الصُرة التي تحمل فيها ملابسها .. قالت وقد فاض بها الكيل:

- إنك لم تترك لي مجالًا للكلام !!

دون أن يلتفت إليها قال:

- لقد أخبرتك أنني في عجلة من أمري

- ولكنني لا أريد الذهاب لمنزل الجد

- لقد تحدثنا في هذا الأمر، أنا لن أتركك في المنزل بمفردك.

- وأنا لا أريد البقاء في المنزل بمفردي، أريد مرافقتك إلى الحرب.

" مهلا..

هو لم يخبرها بشأن الحرب حتى لا يثير فيها الخوف قبل رحيله عنها؛ كل ما أخبرها به فقط هو أن الملك أوعز إليه القيام بمهمة ما .. فمن أخبرها بالحقيقة ؟ "

- كيف عرفتِ عن الحرب ؟!

- لا حديث لسكان قريتنا إلا الحرب.

- وكيف عرفتِ أنني ذاهب إليها ؟

- لن يطلبك الملك في هذا التوقيت بالذات إلا من أجل إرسالك إلى ساحة المعركة.

أخذ غيّاث نفسًا عميقًا، ثم قال مستسلمًا:

- أحيانًا أنسى أن لديك عقل.

- خذني معك.

- لستُ ذاهبًا لصيد السمك حتى آخذك معي.

- لماذا إذًا كنت تقسو عليَّ أثناء التدريبات إن كنت لن تثق بقوتي عندما يحين الجد ؟

- إنها ليست حرب مملكة ضد أخرى بل عالم ضد آخر.

صمتت قليلًا قبل أن ترفع عينيها البُندقيتين نحوه وتطلق له هذا الوعد الذي لم يتوقع سماعه:

- خذني معك وسوف أقتل عاصف.

كانت المعلومة المنتشرة تفيد بأن ممالك التنين سوف تحارب مع عاصف، بينما لا أحد يعرف حقيقة المهمة السريّة غير نفر قليل جدًّا من خاصة الملك.

- كيف عرفتِ بهذا الأمر ؟!

- سمعتكَ تصرخ باسمه أثناء نومك؛ فعرفت أنه سوف يكون عدوك في المعركة.

وقالت تكرر له وعدها:

- خذني وأعدك أن أقتل لك عاصف.

التقط الصرّة من على الأرض، ثم قال وهو يسحب نورس معه:

- لقد تأخرنا على الجد، لا بد أنه ينتظر قدومنا.

أكملا الطريق نحو منزل الجد الذي كان بالفعل ينتظر قدومهما عند الباب .. التفتت نورس نحو والدها قبل أن تنطلق إلى داخل المنزل وقالت تسأله:

- متى ستعود من هناك ؟

غياث يعلم أن هذا ربما يكون لقاءه الأخير بها؛ لكنه لم يشأ أن يكذب عليها:

- لا أحد يعرف متى سيعود من الحرب.

تدخل الجد في اللحظة المناسبة لينقذه من الموقف المحرج:

- اذهبي إلى غرفتك الآن يا نورس وضعي حقيبتك فيها.

- حاضر أيها الجد.

أمسك غياث يدها قبل أن تذهب وانحنى ليعانقها ويهمس في أذنها جملة كان والده في الماضي البعيد يقولها له ولأخته؛ بعد أن يُنهي عليهم تلاوة إحدى القصص القديمة:

- تذكري دائمًا يا ابنتي أن الرب يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه تتفقا ؟

قالت وكأن قلبها بالفطرة قد استجاب لتلك الجملة:

- يستجيب الرب أي دعوة ؟

- نعم، أي دعوة

- اتفقنا

قالت ذلك ثم ذهبت نحو الغرفة.

التفت الجد إلى غيّاث وقال له:

- أكان من الضروري أن توافق على هذه الحرب ؟!

- لم أكن أرغب بذلك ولكنني قطعتُ إلى عِزرا عهدًا بالدم على نفسي، ويبدو أنها قد سلمت ذلك العهد إلى الملك يّمان فاستخدمه في فرض أمره عليّ.

هزّ الجد رأسه متفهمًا، وقال يُطمئنه:

- سوف تكون نورس في أمان حتى تعود.

أدخل غيّاث يده إلى جيبه وأخرج من هنالك شيئًا ما:

- إن انتهت الحرب ولم أعد، فأريد منك أن تُسلم هذه الورقة إلى نورس.

الجد وهو يأخذ منه الورقة ويهمس إليه متسائلًا:

- هل أخبرتها بالحقيقة ؟!

- نعم؛ لقد أخبرتها بأنني لستُ والدها الحقيقي؛ لا أريدها أن تظل وحيدة بعد موتي .. يجب أن تفتش نورس عن عائلتها الحقيقية وتذهب للعيش معهم

- لا أتحدث عن هذه الحقيقة.

نظر غيَاث إلى عين الجد باهتمام وقال متسائلًا:

- عن أي حقيقة تتحدث ؟

أجاب وهو يَخفض صوته للحد الأقصى حتى يضمن بأن الحيطان لن تسمعه:

- عن اسمك وهويتك الحقيقية.

- لا! فهذه الحقيقة لا ينبغي لأحد أن يعرفها أبدًا.

٨

الزحف

لم يعد هنالك حديث لشعوب العالم إلا عن تلك الحرب الوشيكة التي قد تُغير مجرى التاريخ إلى الأبد .. وفي اثناء هذا الانتشار الواسع لأخبار الحرب كان على غيَاث أن يتوخى الحذر الشديد؛ فلا ترصده العيون بينما هو يتحرك بجيشه غير النظامي الذي يبلغ قوامه زُهاء الخمس مئة ألف مقاتل متجهًا إلى أقرب بوابة تُفضي نحو الأرض السُفلية.



كانت ممالك الأرض السُفلية - المتحالفة منها والمتنافرة - قد اصطفت بعضها إلى جوار بعض لتدافع عن عالمها وتحميه من الخطر القادم.

وهذا ما جعل غيّاث حين وصل إلى الأرض السُّفلية وحط بجيشه في جزيرة اسمها (جزيرة عيطموس) أن يلتفت إلى أفراد جيشه و يأمرهم بتنفيذ الخطة التي كان قد اتفق معهم عليها:

فألقى الجنود بأسلحتهم أرضًا، ورفعوا الرايات البيضاء.

رصدت العيون السُّفلية ذلك الجيش الغريب وهو يظهر في الجزيرة، وكانوا بصدد الهجوم عليه لولا أن شاهدوا أفراده وقد ألقوا بأسلحتهم أرضًا ورفعوا رايات الاستسلام عاليًا؛ فقرر متخذو القرار هناك أن يبعثوا إليهم رسولًا يستطلع الأمر.

تقدم الرسول نحو الجيش الغريب .. سار بحصانه المجنَّح قاصدًا الفارس الذي يقف مباشرة أسفل أكبر راية بيضاء وسأله عن أسباب قدومهم.

أجابه غيّاث:

- لديَّ رسالة يجب أن يطلع ملوكك عليها.

قال الرسول وقد اتخذ معه أشد أنواع الاحتياطات الأمنية صرامة وحزمًا:

- ستأتي معي وحدك، بدون أسلحتك، وبدون حصانك.

كان غيَاث هو الوحيد - في جيشه - الذي ما يزال يحتفظ بأسلحته، ففي الحروب لا يُلقي القائد بسلاحه إلا عند الهزيمة، ولكن لحساسية الموقف كان عليه أن يُنفذ ما طُلب منه

فنزع عن جسده كل الأسلحة والدروع ولكنه لم يُلقها أرضًا بل علقها على متن حِصانه المجنح؛ كما ليخفف بذلك التصرف عن جنوده وطأة الأمْر:

- خذني إلى ملوكك أيها الرسول.

- اتبعني - وأضاف الرسول مهددًا: إذا كانت نواياك صادقة فستعود لجيشك، أما إن كانت نواياك خبيثة فلن تعود إليهم ولن يبرح جيشك هذه الأرض حيًّا.

ذهب غيَاث برفقة الرسول نحو القلعة التي يجتمع فيها ملوك الأرض السُّفلية، وقد أوعز بالقيادة - قيادة الجيش - في غيابه إلى صديقته ريحانة ابنة مَيثم.

**

بعد ساعة من ذلك،

جاء أحد الجنود إليها ليُبلغها بأمر هام:

- هنالك شيء يجب أن تأتي لرؤيته بنفسك أيتها القائدة.

سارت ريحانة تتبع الجندي حتى أوصلها إلى شُعبة في الجيش يُطلق عليها اسم شُعبة تخزين المؤن الغذائية .. وهناك شاهدت ريحانة بعضًا من الجنود يُحيطون بصندوق ما وقد أشهروا عليه سيوفهم فقالت بريبة وتوجس:

- ماذا هناك ؟!!

قال أحد الجنود:

- لقد سمعنا بعض الأصوات الغريبة الصادرة من هذا الصندوق.

أصاخت ريحانة السمع وقد استطاعت فعلًا أن تلتقط بعض الأصوات الغريبة من داخله:

" كانت الأصوات مزيجًا بين خربشات أظافر،

وبين أصوات تشبه صيحات قطة رضيعة

لفرط الجوع تُنادي والدتها "

- تراجعوا إلى الوراء.

أطاع الجنود أمر القائدة وتراجعوا إلى الوراء،

بينما تقدمت ريحانة وحدها نحو الصندوق بحذر وفتحت بابه، وحين ألقت نظرة إلى الداخل رأت أكثر شيء كانت تتوقعه وتخاف من رؤيته:

- يا للكِ من قملة صغيرة مزعجة.

من داخل الصندوق: أخرجت نورس رأسها وأخذت تنظر نحو الجنود الذين كانوا يحيطون بها؛ وعندما لم تعد تعرف ما تقول فإنها عادت إلى الداخل وهي تتمنى لفرط الخجل أن تُشق الأرض وتبلعها.

قالت القائدة ريحانة تأمر الجنود:

- ليعد كل واحد منكم إلى عمله.

كانت ريحانة تعلم أن العِتاب لن يُجدي نفعًا؛ فقد نجحت نورس على غفلة من والدها والجنود في التسلل إلى داخل أحد صناديق المؤن واللحاق بهم إلى الأرض السُّفلية.

ألقت القائدة ريحانة نظرة إلى داخل الصندوق، وأشارت بأصبعها نحو شيء ما:

- أهذا هو الشيء الذي فضحك بصوته ؟

كان ذلك الشيء هو:

(فرخ التنين وقد فقس قبل لحظات من داخل بيضته)

كان له جسد كبير الحجم بالنسبة إلى فرخ .. تُغطيه الحراشف الخشنة ويملك جناحين أشبه بجناحي خفاش .. ومن جسده كانت تتقاطر مياه الولادة اللزجة.

كانت نورس غريزيًا تدرك سبب بكاء الفرخ الجديد؛ فقالت:

- أتعرفين ما الذي يأكله أطفال التنانين ؟!

- إنها تفضل اللحوم البشرية

- ومن أين قد آتي له بلحم بشري في هذا الوقت ؟!

- لا تقلقي، والدك سيتكفل بالأمر

- أتظنين ؟

- بل متأكدة من ذلك .. فبالرغم من نوبة الغضب التي قد تُصيبه بعد أن يعرف بشأنك .. إلا أنه شخص طيب ومتفهم للغاية.

- ومتى تظنين أنه سوف يُطعمه ؟

- بعد أن يذبحك مباشرة.

عند المساء:

عاد غيّاث إلى الجزيرة حيث ينتظره جيشه،

وكان أول ما فعله هو أن قام باستدعاء مستشاري الحرب إلى الخيمة ليعقد معهم اجتماعًا يُخبرهم فيه بما جرى في لقاءه مع ملوك الأرض السُّفلية.

كانت ريحانة ابنة مَيثم أول الواصلين إلى الخيمة وقد استطاعت من خلال النظر إليه أن تعرف بأن اجتماعه مع الملوك لم يجرِ بالشكل المطلوب.

جلست فوق مقعدها المخصص - على يمين غيّاث - بصفتها النائب القيادي، كانت تستطيع أن تخبره بأمر ابنته ولكنها آثرت أن تفعل ذلك بعد أن يُنهي اجتماعه؛ حتى لا تُفقده التركيز.

قال يُطلعهم على الأمر:

- لقد حصلنا على جميع الأصوات، إلا صوتًا واحدًا.

كان مستشارو الحرب يعرفون ما مدى خطورة ذلك الكلام؛ فصوت رافض واحد يعني استبعاد جيشهم من المشاركة .. قال غيّاث يُطمئنهم بعض الشيء:

- لم يصوِّت أحدٌ ضدنا، ولكن الملكة صاحبة الصوت الأخير لم تكن حاضرة معنا في القصر؛ يُقال بأنها تقوم بمهمة خاصة؛ لذلك سوف ننتظرها حتى تعود لتُدلي لنا بصوتها.

علّقت ريحانة:

- نبرتك تبدو غير متفائلة.

- لأنهم أخبروني بأن الملكة لن توافق على انضمام قواتنا إليهم.

- وفي هذه الحالة هل سنرجع إلى ممالك التنين ؟

- نعم، ولكن الكثير منا سوف يرجع من غير رأسه.

- ماذا تعني ؟

- في حال عدم الموافقة فإن جيوش الأسفل لن يسمحوا لنا بمغادرة عالمهم؛ لذلك يجب أن نبذل قصارى جهدنا في جعل تلك الملكة توافق على انضمامنا إليهم، وإلا فسوف نضطر إلى قتال العالم السُّفلي وحدنا.

١

الزائر

انتبذ الأصدقاء مكانًا قصيًّا يجلسون فيه، فلم يعد يفصلهم عن الحرب غير أيام قليلة وهذا ما جعلهم يفضلون البقاء بمعزل عن الآخرين والاكتفاء بأنفسهم.

نهض أوس من مكانه بعد قليل،

ودلف إلى الغابة التي كانوا يجلسون بالقرب منها،

وحين عاد بعد وقت قصير كان يحمل في يده رزمة من الأحطاب الهشة.

جلسوا حول النار بشكل دائري،

كانت إضاءة لهب النار تفضح ملامح الخوف على وجوههم، إنهم يهابون الحرب بل يخاف كل واحدٍ منهم في الحرب أن يفقد صديقه.

قررت بَرقاء أن تفعل شيئًا من شأنه أن يخرجهم من جو الكآبة؛ فنهضت وألقت هذا اللغز:

- من يستطيع أن يُخمن الشيء الذي سأذهب بعد قليل لأجلبه لكم ؟

في البداية لم يتفاعل أحدٌ مع لعبتها .. ولكن طائر العنقاء إكليل الذي كان يُحب الفعاليات المسلية التي يصنعها البشر، قال وقد تحمس للعثور على الإجابة الصحيحة:

- أتستطيعين تقريب الأمر لنا أكثر ؟

ابتسمت بَرقاء وقد أعجبها أن يتفاعل أحدٌ معها:

- حسنًا، إنه شيء يبدأ بحرف النون وهو يبعث على تهدئة النفس والسعادة.

الحكيم متدخلًا:

- نساء ؟

منع الجميع ضحكاتهم بصعوبة، وكادت بَرقاء أن تصب جام غضبها عليه لمحاولته إفساد اللعبة ولكنها تجاهلت الأمر وعادت إلى موضوع اللغز:

- إنه شيء يُقدم ساخنًا.

الحكيم مجددًا:

- نساء ساخنات ؟

أفلتت منهم بعض الضحكات، بينما قالت برقاء غاضبة:

- ألا يستطيع عقلك المريض هذا أن يفكر بشيء آخر ؟!!

قال يدافع عن إجابته:

- شيء يبعث على تهدئة النفس والسعادة ويبدأ بحرف النون؛ إنهن النساء بالتأكيد !!

- وماذا عن مشروب النعناع يا قليل الأدب ؟!!

- لقد غابت هذه الإجابة عن بالي.

- هل جميع الرجال يفكرون بهذه الطريقة، أم أنك المعتوه الوحيد بينهم ؟

- لا، ليس الجميع .. نصف الرجال فقط.

- والنصف الآخر ؟

- نائمون؛ يحلمون بالنساء.

كان يقصد ممازحتها فقط ولكنه أدرك من خلال تعابير وجهها أنه قد تجاوز حدّه معها؛ فاقترب منها بخطوات بطيئة حتى إذا وقف أمامها قال معترفًا:

- إنك تذكرينني بأختي؛ لذلك أمازحك مثل ما كنت أفعل معها.

جذب ذلك الكلام انتباه الجميع، لم يكن أحد منهم قبل هذه المرة يعلم أن للحكيم أختًا؛ ذلك أنه لم يسبق له الحديث معهم عن حياته الخاصة.

أدركت بَرقاء سبب مضايقة الحكيم الدائمة لها بمزاحه الثقيل؛ إنه يرى فيها أخته، وربما مزاحه الثقيل معها يكون من باب تذكير نفسه بأيام جم، مضت ولن تعود.

قالت كمن يضع يده برفق على جرح مؤلم:

- وما الذي حدث لها ؟!

صمت وامتنع عن الإجابة؛

ذلك لأن حزنه كان أعمق من أن يشاركه مع أحد.

نظر نحو الأرض كما ليُخفي عنهم ألمه، واكتفى بأن قال:

- حياة الإنسان تُشبه الكتاب .. ولكل إنسان منَّا طعنة مخبأة بين أوراق كتابه .. هذه الطعنة لا تقتلنا ولكنها تقتل أشياء جميلة كانت تعيش فينا وتغير حياتنا إلى الأبد

حملته برفقاء بين يديها وقالت:

- كنت أراك تضحك طوال الوقت؛ لم أكن أعلم أن هنالك حزنًا يُعشش في قلبك.

قال وهو لا يعلم أنه قد نطق بتلك الإجابة قبل هذه المرة[9]:

- منذ أن خذلت ذات مرة وأنا أستخدم المزاح كوسيلة للهرب ولكن يا صديقتي؛ إن الذين يضحكون كثيرًا هُم أكثر أهل الأرض حُزنًا.

- لن أجبرك على الحديث؛ ولكنك تعلم بأنني سأكون مستعدة طوال الوقت لأسمعك حين تريد أن تتحدث؛ وهذا أقل ما قد تفعله البقرة لصديقها.

ومثل ما أن الراعي يقود قطيعه نحو الحقول،

النساء قادرات أيضًا على قيادة الشمس إلى الشروق داخل كل قلب مظلم.

---

٩ سبق للحكيم أن قال هذه الإجابة في رواية (جومانا) ولكنه فقد الذاكرة بعدها فنسي أنه قد قالها في يوم من الأيام.

ابتسم الحكيم،

ولكن تلك الابتسامة لم تدم طويلًا حتى حلّت مكانها ملامح الذهول والمفاجأة؛ فقد شاهد -كما شاهد الجميع- زيارة شخص لم يتوقع أحد منهم قدومه.

كان الزائر هو سرابي.



٢

الوجه الآخر

الخطة البديلة

تقدمت سرابي إليهم وسط دهشة الجميع،

وجلست معهم ضمن الدائرة التي تُحيط بنار التدفئة.

كان الجميع يريدون أن يسألوا عن سبب زيارتها،

ولكن في الوقت ذاته كانوا يشعرون بأن تلك اللحظة أجمل من أن يُفسدها أحدهم بالسؤال؛ فعلى الفلاح عندما يهطل المطر ألَّا يُفسد اللحظة الجميلة بسؤاله السماء عن أسباب المطر.

مدت سرابي يدها تُمررها برفق على ظهر طائر العنقاء الذي وإن حاول كتم حنينه إليها .. إلا أن إضاءة لهب النار استطاعت أن تكشف دموعه المخبأة في مُقلتي عينيه

وبينما كان الجميع سعداء بقدومها،

كان الشمالي وحده هو القلق من تلك الزيارة: فلم يعد يتبقى على الحرب سوى أيام قليلة؛ تُرى ما هو السر الذي يقف وراء قدومها في هذا التوقيت الحساس؛ إنه لا يعرف السر ولكنه ليس مرتاحًا للأمر.

قال يسألها:

- ما الذي جاء بك الآن يا سرابي ؟!

لم تتعجب سرابي من سؤاله؛ إنها تعرف إلى أي حد قد يكون الشمالي ذكيًا؛ وتعلم أن قدومها لن يمر عليه دون أن يخلق بداخله الكثير من الأسئلة:

التفتت نحو عاصف وقالت:

- جئتُ أطلب منك أن توقف هذه الحرب.

أَوس يعرف أن عاصف ربما ينساق وراء عواطفه؛ فقال يحذره قبل أن يتخذ قرارًا قد يندم عليه لاحقًا:

- ملوك الأرض العُليا جميعهم يقفون إلى جانبك في هذه الحرب؛ إن انسحابنا من حِلفهم في هذا الوقت يُعد بمثابة الخيانة التي تستوجب منهم عقابنا عليها.

قالت سرابي تستخدم ورقة الضغط التي تراهن على نجاحها:

- إن كنتُ أعني لك شيئًا، فأرجوك أوقفها.

عاصف لا يكترث بالكلام الذي قاله أوس؛ إنه يفعل فقط ما يُمليه عليه قلبه:

- إذا أوقفت الحرب، فهل ستعودين ؟

قالت دون أن تفكر في إجابتها مرتين:

- لا أستطيع.

الآن وعندما قالت (لا أستطيع) تأكد أكثر من نظريته؛ إنها حقًا محتجزة في الأسفل، ولكنها لا تريد أن تخبرهم بالحقيقة لأنها تخاف عليهم.

عادت تكرر:

- أرجوك أوقف الحرب

قال وهو يُشير نحو الحطب المشتعل:

- إذا استطعتِ أن تُقنعي هذه النار بأن تُصبح باردة كالزمهرير، واستطعتِ أن تُقنعي السواد أن يستحيل إلى ضوء منير أعدك أن أفكر بطلبك.

أثناء تلك المحادثة بينهما - بين عاصف وسرابي - كان الشمالي يحاول بقوة الفراسة خاصته أن يعرف ما تخطط له سرابي ولكنها كانت تجيد تحصين نفسها جيدًا فتمنعه من الدخول إلى عقلها؛ وبرغم عدم تأكده من نيتها إلا أنه كان شديد القلق منها.

عادت سرابي تطلب للمرة الثالثة:

- أرجوك أوقف هذه الحرب.

- وأنتِ ؟!

- قلتُ لك أنساني إلى الأبد يا عاصف !!

- قسمًا بعينيكِ اللتين هُما موطني ومسقط رأسي ومدفني؛ لأقودن جيشًا نحو الأسفل لا يتوقف عن سَفك الدماء حتى تُفنى الأرض السُفلية أو تعودي إلينا.

أدركت سرابي أنه لن يتراجع؛

وهذا ما جعلها تقرر كشف القناع عن وجهها الآخر وتنتقل إلى الخطة البديلة:

فقامت بخطف الحكيم من حضن بَرقاء وقالت بصوتٍ عالٍ:

- فحاوطوا فالمنطقا !!

وما إن قالت ذلك حتى ظهر فرسانٌ مُلثمون من خلف الأشجار حاوطوا المنطقة بأكملها، وقد كان من الواضح أنهم فرسان ذوو قدرات خاصة.

لم يكن لدى الأصدقاء وقت لأن يستوعبوا ما حدث،

كان الأمر في غاية البساطة: " **لقد تعرضوا للخيانة** "

كانت سرابي تدرك أنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي؛ فقامت بتذكيرهم بالشيء الذي بيدها:

- حركة واحدة منكم، وسيموت الحكيم.

استطاعت أن تشل حركتهم دون الحاجة لتعويذة أو طلسم سحري، وبينما هم غير مصدقين بأن سرابي قد تفعل هذا بهم؛ إذ قررت بَرقاء أن تستخدم قوتها لتحرير الحكيم .. ولكنها ما كادت أن تتحرك من مكانها نحوه حتى هجم عليها من الخلف فارس مُلثم ذو عينين حادتين كالسُّم، وأسقطها أرضًا.

لم تكن بَرقاء ضعيفة؛ فقد كانت تنتمي لسُلالة عشائر الدم المعروفة بقوة أفرادها ولكن الفارس باغتها على حين غفلة.

امتلأت عينا الحكيم بالدموع لرؤية - أخته تسقط - وصاح مستغيثًا بأصدقائه:

- الثأر لـ بَرقاااء !!!

لم يعد يُهم الأصدقاء من يموت ومن يعيش .. فقد سقط أحدهم وعليهم أن يثأروا له حتى وإن كان ذلك يعني سقوط شخص آخر منهم أو سقوط الجميع.

حلق طائر العنقاء إكليل عاليًا مؤذنًا ببداية الهجوم،

قفز نحوه أحد الفرسان محاولًا اللحاق به قبل أن يرتفع عاليًا ويصبح سلاحًا جويًا ضاربًا، ولكن الشمالي قفز معترضًا الفارس في الجو وقسمه بسيفه إلى نصفين.

اشتبك الأصدقاء ضد الفرسان المُلثمين؛ الأمر الذي اضطر سرابي لأن تستخدم ورقة ضغطها الأقوى؛ كانت تعلم أن أرواحهم القتالية سوف تنهار بمجرد رؤيتهم مقتل الحكيم

فمدت يدها نحوه لتقتله.



٣

ذات العيون المقدسة

ولكن قبل أن تصل يدها إليه اقتحم أحدهم المكان وصاح بفحيح مرعب:

- توقفوا الآن، قبل أن أوقفكم بطريقتي.

توقف الجميع عن القتال احترامًا لكوبرا أفعى الجن تارا، والتي التفتت بعينيها السوداء الأشبه بحجر مقدس نحو سرابي وقالت تُعطيها أمرًا لا يحتمل التأجيل:

- ضعيه، وعودي من حيث أتيتِ.

بقدوم كوبرا أفعى الجن تارا تغيرت موازين القوة؛

فقامت سرابي بوضع الحكيم أرضًا ثم اختفت من هناك واختفى معها فرسانها.

دفنها الأصدقاء،

ومكثوا حول قبرها وكأنهم بذلك أرادوا إطالة أمد البقاء معها لأطول مدة ممكنة.

قالت كوبرا أفعى الجن وهي تلحظ الدموع في مآقيهم:

- لقد بدأ طوفان الدماء بالجريان؛ وفروا دموعكم هذه إلى ما بعد انتهاء الحرب.

قال الشمالي وقد قرر أن يكشف لهم عما كان يفكر فيه:

- سرابي ليست محتجزة في الأرض السُّفلية؛ إنها تمكث هناك بمحض إرادتها.

رغم تعرضهم لغدر وخيانة سرابي إلا أنهم لفرط ثقتهم بها كانوا ما يزالون يتخيلون بأنها محتجزة في الأسفل، وأنه لا بد أن يكون هنالك تفسيرًا منطقيًا يشرح ما حدث قبل قليل، ولكن الشمالي كانت له نظرية أخرى؛ فهو ليس من ذلك النوع الذي ينجرف وراء عاطفته؛ إنه يعرف كيف يضع قلبه جانبًا في المواقف الحاسمة ويفكر بمنطقية تكشف له كل ما هو غامض وصعب:

- لقد حان الوقت لأكشف لكم ما أفكر فيه.

هرول الحكيم نحو بَرقاء ليطمئن عليها،

وضع أذنه عند صدرها فوجدها قد فارقت الحياة؛ قال يعاتبها ودموعه تُبلل وجهه:

- قلتِ بأنك سوف تكونين مستعدة طوال الوقت لتسمعيني حين أرغب في الحديث، ولكنكِ رحلتِ مثل ما رحلت عائلتي ولم تسمعِ ما كنت أريد قوله لكِ.

حفر لها الأصدقاء قبرًا أنزلها أوسٍ فيه،

كانت بينهما - بين أوس وبَرقاء - علاقة عميقة في الماضي وقد انقطعت بسبب العداوة التي بين عائلته وعائلتها[10] .. كان ينتظر انتهاء الحرب علّه يجد الوقت المناسب لإعادة مد الجسور بين قلبه وقلبها ولكنه الآن تعلم درسه الأهم:

وهو بأن الموت لا ينتظر، ولا يستأذن أحدًا.



---

١٠ بحسب رواية (الجشّاسة) فقد كانت بَرقاء تنتمي لأحد عوائل عشائر الدم، وأوس في المقابل ينتمي إلى قبائل المستلبين، وقد كان هنالك بين القبيلتين ثارات وحروب قديمة وعداء مستمر؛ لذلك استخدم الأمير تليد (والد بَرقاء) كامل صلاحياته كأب لها وكأمير للعشائر وقام بقطع العلاقة بينها وبين أوس.

كانت نظرية الشمالي تنقسم إلى قسمين: إنه يعتقد بأن سرابي ليست محتجزة في مملكة الجِن والبِن، إنه يعتقد أيضًا بأنها ليست امرأة عادية هناك.

كان يعلم بأنهم لن يصدقوه؛ فقال يُقدم لهم الدليل:

- إنها قادرة على التنقل بين الأرض السُّفلية والعلوية كما تشاء وفي الوقت الذي تشاؤه؛ كما أنها أيضًا لا تتحرك وحيدة بل يرافقها موكب من الحراسات الخاصة وهذا يعني أنها باتت امرأة ذات شأن عظيم في مملكة الجِن والبِن

..

قالت تارا تكشف لهم الحقيقة؛ وتؤكد على نظرية الشمالي:

- سرابي لم تعد تلك الصديقة التي تعرفونها.

التفت الجميع نحوها فقالت تخبرهم بالمفاجأة التي لم يتوقع أحد منهم سماعها:

- إنها الآن ملكة الجِن والبِن.

وعندما بانت الدهشة على وجوههم من ذلك الخبر الصاعق، قررت أن تقصَّ عليهم قصة سرابي الكاملة .. منذ اللحظة التي وافقت فيها على الزواج من الشيطان مرورًا بذهابها معه إلى عالمه - العالم السُّفلي - وحتى اللحظة التي أصبحت فيها ملكة مملكة الجِن والبِن.

طائر العنقاء إكليل:

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

- قامت سرابي بسؤال الشيطان عن الطريقة التي قد تجعل منها قوية، فأخبرها أن هنالك سوقًا اسمه (سوق المحاربين القُدامى) وهو المكان الذي قد يُلبي لها طلبها.

ذهبت سرابي إلى ذلك السوق وأخذت تفتش فيه عن مدرب يقبل بتدريبها

ولكن أحدًا من أولئك المدربين لم يوافق عليها، ليس فقط لأنها ضعيفة وبدت كالتلميذ الذي لن يُثمر فيه التعليم ولكن لأنها أيضًا لم تكن تملك مالًا تدفعه مقابل التدريب.

وبينما كانت في طريقها للمغادرة - مغادرة السوق - إذ قرص الجوع بطنها وقد عزَّ عليها أن تتسول مقابل لقمة الطعام؛ فقصدت إحدى النفايات وقد استطاعت بكثير من الحظ أن تعثر على قطعة خبز نظيفة لتأكلها.

وقبل أن تضع الخبزة بفمها لكزها صبي يتسول منها تلك اللقمة؛ ابتلعت سرابي لعاب جوعها وابتسمت وهي تمد إلى الصبي المتسول تلك القطعة.

٤

كوبرا أفعى الجن تتحدث

- لم يدم زواج سرابي من الشيطان طويلًا؛ فقد أطلق سراحها بعد ليلة واحدة قضاها معها .. وقد أخبرها بالطريقة التي تعود بها إلى الأرض العلوية ولكن سرابي اختارت البقاء في الأسفل.

عاصف متسائلًا:

- ولماذا اختارت البقاء في الأسفل ؟

- لقد كانت في ذلك الوقت ضعيفة .. وفكرت بأن وجودها بينكم سوف يُشكل عليكم حملًا ثقيلًا؛ وهذا ما جعلها تقرر البقاء في الأسفل ريثما تُصبح قوية ثم تعود إليكم.

كان هنالك رجل شاهد ما حدث، وقد أعجبه التصرف النبيل الذي قامت به سرابي تجاه الصبي المتسول؛ فالعالم السُّفلي هو مكان يكتظ بالقسوة والشر ولا مكان لمثل تلك الأعمال الطيبة فيه؛ وهذا ما دفع الرجل لأن يقترب منها ويقول:

- اتبعيني أيتها الفتاة.

لقد سبق لسرابي وأن رأت ذلك الرجل يقف مع زُمرة المحاربين القدامى وقد أدركت من خلال احترام الجميع له بأنه رجل ذو شأن عظيم؛ الأمر الذي جعلها تتوسم فيه خيرًا فراحت تتبعه دون أن تسأله عن الوجهة التي يأخذها إليها.

أخذها المحارب القديم إلى إحدى حانات المنطقة .. وهناك قدمها إلى شخص ما .. وقد كان ذلك الشخص له تركيب جسد مختلف عن كل المخلوقات التي كانت سرابي قد شاهدتها في حياتها من قبل؛ فقد كان رجلًا من الإنس ولكنه يحمل بين كتفيه رأس تيس حقيقي.

قال المحارب القديم يُخاطب الرجل ذا رأس التيس:

- فخذها فإلى فإليه فيا فثعل .. ..

توقف المحارب القديم عن إكمال الجملة؛ إذ أدرك أن سرابي لا تفهم اللغة التي يتحدث بها؛ فأعاد يكرر كلامه ولكن بلغة تفهمها وتطمئن إليها:

- خذها إليه يا ثَعل، وقُل له بأنها نِعم عتبة الباب هي.

وحين انهى كلامه التفت نحو سرابي وقال يودعها: (أتمنى لك حظًا موفقًا يا بُنية) ثم ذهب .. وأخذت سرابي تُشيعه بعينيها وهو يغادر الحانة دون أن تفهم شيئًا

ابتلع ثَعل كأس الشراب الذي بيده دفعة واحدة، ثم تجشأ ومسح فمه من بقايا الشراب بكم قميصه، وقال وهو يتجه نحو باب الحانة:

- اتبعيني يا سيدتي

لم يكن لديها ما تخسره فذهبت تتبعه إلى باب الحانة،

حيث كان ينتظرهما في الخارج عربة يجرها أربعة من الخيول السوداء، صعدت سرابي إلى داخل العربة وكذلك فعل الرجل ذو رأس التيس وانطلقا نحو مكان مجهول.

لم تستطع سرابي كتم فضولها أكثر فقالت تسأله:

- ما هي تلك اللغة التي كنتما تتحدثان بها أنت وذلك المحارب القديم والأشبه بأصوات القرقعة ؟!

- اسمها (تراتيل الجِن) وهي إحدى اللغات القديمة للعالم السُفلي يا سيدتي؛ إنها ليست معقدة؛ كل ما عليك فعله فقط هو إضافة حرف القاف قبل كل كلمة تنطقينها.

كانت سرابي تعلم أن أقرب طريقة للتواصل مع الغرباء هي التحدث إليهم باللغة التي يتحدثون بها، فأخذت ترتب الجملة برأسها حتى تقولها على طريقتهم:

- قإلى .. قأين .. قنحن .. قنتجه ؟!

صفق ثَعل سعيدًا بما سمع، وقال يُضيف هذه الملاحظة:

- يجب عليكِ أن تُضيفي حرف الألف عند نهاية الكلمة التي تُنهين بها جملتك.

عادت سرابي تكرر السؤال آخذة تلك الملاحظة بعين الاعتبار:

- قإلى قأين قنحن قنتجها ؟!

صفق ثَعل مرة أخرى وهو يُتمتم (جيد، جيد) ثم قال يُجيبها على سؤالها:

- قنحن قذاهبون قإلى قمملكة قيقال قلها .. .. ..

قاطعته سرابي:

- إنك تتحدث بسرعة لا يُطيق عقلي فهمها.

أطلق ثَعل ضحكة تُشبه ثُغاء التيس وقال يحدثها بلغتها:

- نحن ذاهبون إلى مملكة يُقال لها الجِن والبِن.

كانت تسمع ذلك الاسم لأول مرة، الأمر الذي دفع ثَعل ليشرح لها عنهم:

- الجِن والبِن هُم أول خَلق تطأ قدمه الأرض العلوية.

كانت تلك المعلومة تعارض معلومة أخرى بذهن سرابي، فقالت تسأله:

- أهم قبل الجن ؟!

- نعم؛ بألاف السنين يا سيدتي.

- فلماذا اتخذتم من الأرض السُّفلية لكم وطنًا ؟!

- دارت معركة كبيرة بين أجدادنا ضد بني الجن انتهت بهزيمتنا ونفينا إلى هذا العالم.

تحس ثعل بأن لديها سؤالًا ولكنها تتحرج من طرحه فقال كما ليُذيب جدار الجليد الذي بينهما:

- لستُ مرتبطًا إن كان هذا ما تفكرين به.

ضحكت سرابي ولكن ليس لأن ما قاله كان طريفًا بل لأنه ذكرها بأسلوب الحكيم:

- لماذا تملك جسد إنسان ورأس تيس ؟!

- البعض منَّا يُشبه الإنس - ثم أضاف وهو يُشير إلى نفسه:

- والبعض الآخر يُولد بهيئة مميزة مثل الرجل الوسيم الماثل أمامك يا سيدتي.

ابتسمت سرابي لظرافته،

ثم التفتت تنظر من خلال النافذة نحو المملكة التي كانت العربة تمر من فوق أراضيها .. وقد أثار اختلاف أشكال مخلوقات الجن والبِن إعجابها وفضولها:

فالبعض منهم كالبشر تمامًا، والبعض الآخر خليط بين البشر والحيوانات فهذا يملك جسد إنسان ورأس أسد .. وتلك إنسية يُغطي جلدها حراشف زرقاء تُشبه حراشف الحيّة .. وذاك آخر يحمل صدفة سُلحفاة على ظهره .. لا يحملها كحقيبة يُمكن وضعها ونزعها بل هي جزء أصيل من أعضائه الجسدية

توقفت العربة أخيرًا أمام قصر مَهيب نُحت وسط جبل هائل الضخامة، ما إن رأته سرابي حتى أدركت على الفور بأنها تقف الآن أمام قصر مملكة الجن والبِن:

- لماذا أتيت بي إلى هنا، وإلى أين ستأخذني ؟!

- سوف تعرفين بنفسك بعد قليل.

ثم وهو يترجل من العربة:

- اتبعيني يا سيدتي.

**

لقد أخذها إلى هناك خصيصًا حتى يُقدمها إلى (مَدار) وهو ملك الجن والبِن:

- يُقرئك صديقك (راحيم) السلام، ويقول لك بأنها نِعم عتبة الباب هي يا سيدي.

في تلك الفترة كانت العائلة الملكية لمملكة الجن والبِن تفتش عن امرأة تصلح أن تكون زوجة للملك المريض أملًا في أن تؤنس وحدته قبل أن يُفارق الحياة؛ وهذا ما دفع ذلك المحارب القديم (راحيم) وهو الصديق المقرَّب للملك مَدار أن يرشح له سرابي بعد أن توسم فيها خيرًا.

ما كانت سرابي لتوافق أبدًا؛ ولكن هنالك ما نجح في إغرائها بالقبول
لم يكن المال هو السبب ولا السُلطة التي ستنالها بكونها الملكة بل كان
شيئًا آخر:

- أوافق بشرط أن تدفع لي المهر الذي سأطلبه.

قال الملك مدار بصوت مُتعب:

- ندفع لكِ ما تشائين من أموال خزائننا.

- مهري ليس مالًا.

- ما هو إذًا ؟

- أريد أن أصبح أقوى امرأة في الأرض السُّفلية.

كانت تريد أن تُصبح قوية؛ لتعود لاحقًا إلى عاصف وتساعده في
الثأر من طاغين.

قال عاصف مقاطعًا سرد تارا:

- وهل نالت سرابي القوة التي كانت تطمح إليها ؟

- لقد حقق لها الملك ما طلبت، وأصبحت واحدة من أقوى نساء
الأرض السُّفلية.

- لماذا إذًا لم تعد إلينا ؟

- لأن هنالك ما غير خطتها.

وحين نظر الجميع إليها وفضولهم يكاد يتطاير من أعينهم مثل ألسنة الشرار قالت:

- لقد أنجبت طفلًا.



٥

سرابي
ملكة الجن والبن

بعد أن فشلت خطتها في قتل عاصف،

عادت سرابي إلى حُجرتها في القصر وجعلت تنظر من خلال نافذتها نحو الفناء، حيث يرقد ابنها الصغير ذو العامين والذي اختارت له اسم (غَريد) بين يدي إحدى المربيات ليأخذ حصته من استنشاق الهواء الطبيعي، والحصول على ما يكفيه من ضوء الشمس[11].

في تلك الأثناء طرق أحدهم الباب،

كان مزاجها سيئًا ولكن لأنها تعرف هوية الطارق فإنها قالت:

– ادخل.

---

١١ الأرض السُفلية ليست لها شمس خاصة .. ولكنها تعتمد على ضوء الشمس الخافت والبسيط الذي يصلهم عبر البوابة الطبيعية التي تربط بين العالمين.

تقدم الشاب ذو العينين الحادتين كالسُّم (ياسين) مساعدها الأقرب حتى توقف على بعد مترٍ منها:

- لم نكن نتوقع تدخل كوبرا أفعى الجن

ورغم أن سرابي كانت تريد إنجاز المهمة - مهمة قتلها عاصف - إلا أن شيئًا ما بداخلها كان مسرورًا بقدوم كوبرا أفعى الجن ثارا وإفسادها لخطتها.

- هل تعتقد أنني أخطأت عندما خططت لقتله ؟

- الحياة يا سيدتي تفرض علينا أحيانًا هذا النوع من الخيارات الصعبة، الخيارات التي تُجبرنا على أن نُضحي بشيء كبير لأجل شيء أكبر وأكثر أهمية.

أخفضت سرابي صوتها وهي تقول الجملة التالية:

- ولكنه عاصف.

- أعلم أن ذلك ليس عليكِ بالأمر الهين؛ ولكنك طلبتِ منه إيقاف الحرب وعندما لم يستجب لجأتِ للحل الآخر.

عادت تحدق من خلال النافذة بصمت نحو طفلها غريد

قال ياسين يحلل أمرًا في غاية الأهمية:

- كان عاصف يظن أنكِ محتجزة في الأرض السُفلية؛ ولذلك حشد جيوش لتحريرك، أما الآن وقد اكتشف السر الخاص بك .. فأعتقد بأنه سوف يقرر إلغاء الحرب.

كان تحليله منطقيًا،

ولكن عاصف لا يخضع للمنطق أو العقل إنه يفكر بطريقة لا أحد يستطيع التنبؤ بها .. كانت سرابي تعرفه جيدًا وهذا ما دفعها إلى أن تقول:

- عاصف لن يتوقف؛ إنه قادم لأجلي.

وأضافت بعد قليل من الصمت وهي ما تزال تحدق نحو ابنها:

- ولكن ليس بهدف الإنقاذ هذه المرة، بل بهدف الانتقام.

اتسعت عينا ياسين:

- هل سيأتي ليقتلك ؟!

- نعم، فهل نسيت أننا قتلنا صديقتهم بَرقاء ؟!

وقالت بينما ياسين ما يزال غير قادر على تصديق ما يسمعه:

- عاصف قد يتساهل في كل شيء، إلا أن يؤذي أحدهم أصدقاءه.

توقفت عن التحديق نحو طفلها، ثم التفتت نحو ياسين الذي كان ما يزال لا يصدق ذلك التحول الرهيب في مسار الأحداث؛ فبعد أن حشد عاصف الجيوش ليُنقذها .. هو الآن قادم بتلك الجيوش ليقتلها.

قالت تسأل ياسين:

- ما الذي جئت إلى هنا تريده ؟

- غيّاث وريحانة ينتظرانك في الخارج يا سيدتي.

- ألم تنقل إليهما قراري ؟

- بل فعلت.

- لماذا ينتظرانني في الخارج إذًا ؟

- يزعم غيّاث بأن لديه ما قد يجعلكِ تغيرين رأيك.

- هممم .. كم قلت لي يبلغ عدد جيش ذلك القائد ؟

- زُهاء الخمس مئة ألف مقاتل.

- أتعلم ما هي أفضل طريقة لخوض هذه الحرب ؟

- ما هي يا سيدتي ؟

- أن تُصبح رؤوس الخمس مئة ألف مقاتل هي رايات جيوشنا.

قالت ذلك ثم سارت نحو القاعة التي ينتظرها فيها كلٌّ من غيّاث وريحانة.

كانت سرابي مصممة على قتلهما،

ولكنها ما أن رأت غيّاث حتى ترددت قليلًا، وكأن ملامحه تلك قد ذكرتها بشيء ما .. فمكثت تنظر إليه لبعض الوقت وكأنما تحاول أن تستدعي صورته من أدراج ذاكرتها.

" لقد رأته - بروحها - عند شاطئ ممالك التنين، كان هو نفسه الشخص الذي أخذ طفلتها من جوف القارب في ذلك اليوم؛ ولكن لأن الأرواح لا تملك ذاكرة فهي الآن عاجزة تمامًا عن تذكره " ١٢

وعلى الرغم من النسيان إلا أنها أحست - وبطريقة غامضة - بأن روحها قد أطمأنت إليه؛ وهذا ما جعلها تقول لهما بنبرة أقل عدائية مما كان متوقعًا:

- ما الذي تطلبانه ؟

قال غيّاث:

- جئنا نطلب منكِ أن تغيري رأيك يا جلالة الملكة.

١٢ استطاعت سرابي (في رواية الجشاسة) أن تفصل روحها عن جسدها وتلحق بابنتها الملقاة في جوف القارب حتى رأتها تصل إلى شاطىء ممالك التنين، ورأت غيّاث كذلك بروحها وهو يأخذ ابنتها من جوف القارب ويقرر الاهتمام بها.

كانت سرابي قد حسمت أمرها في رفض الطلب؛ ولكنها الآن تتراجع خطوة إلى الوراء:

- وكيف أضمن بأن جيشك لن يغدر بنا ؟!

كاد غيّاث أن يفتح فمه للحديث ولكنه سمع أصوات صياح وفوضى قادمة من خارج القاعة جعلته يصمت.

قالت الملكة:

- ما الذي يحدث في الخارج ؟!

جاء أحد العمال يخبرها بالأمر: إنها ابنة السيد غيّاث !!

أمسكت ريحانة ابنة مَيثم سيفها - لم تخرجه من غِمده - ولكنها أمسكت بمقبضه وقد اتخذت وضعية القِتال، بينما استطاع غيّاث أن يضبط أعصابه وهو يسأل:

- هل حدث لابنتي مكروه ؟!

العامل وهو بالكاد يمسك بكاءه:

- المكروه حدث لنا يا سيدي، أرجوكِ أنقذنا من ابنتك !!

هرول الجميع إلى الخارج لتفقد الأمر؛

فشاهدوها كالقردة وهي تعتلي صدر أحد العمال جاعلة من وجهه كيس قشٍ تلكمه.

صاح غيَاث عليها: توقفي يا نورس !!!

التفتت نحو والدها وقالت:

- واحدة فقط .. دعني ألكمه مرة واحدة أرجوك - ثم وهي تشد رأس العامل من شعره وتقول:

- انظر إلى وجهه يا أبي ألا يُثير بداخلك الرغبة في ضربه ؟؟!

أمسكت ريحانة ضحكتها بصعوبة، بينما صاح غيَاث:

- قلت لكِ توقفي أيتها الحمقاء !!

توقفت نورس ونهضت من فوق صدر العامل،

ذهبت نحو القفص الذي يستقر بداخله فرخ التنين،

فتحت له الباب - باب القفص الخشبي - ومدت يدها نحوه فتسلق الفرخ ذراعها صعودًا حتى استقر على كتفها، ثم قرب أنفه منها ولمس به خدها؛ وكأنه بذلك السلوك يُعبر عن مدى امتنانه لها.

رغم كل تلك الفوضى التي حدثت إلا أن الملكة سرابي كانت تبتسم لتلك الفتاة الشقية؛ وما كانت تعلم أنها كانت تبتسم إلى وجه ابنتها التي تحلم بلقائها كل يوم:

- أكنتِ تضربينه لأن وجهه أثار بك الرغبة للضرب ؟!

- لا.

- لماذا كنتِ تضربينه إذًا ؟

- لأنني سمعته يتحدث إلى أحد زملائه عن القيمة التي قد يحصلان عليها إن قاما ببيع فرخ التنين في السوق.

التفتت الملكة نحو العامل: أقلت هذا فعلًا ؟!

نهض عامل القصر وقال منحنيًا:

- المعذرة، لقد كنتُ أمزح يا سيدتي.

وأضاف العامل وهو ينظر نحو نورس:

- لم يسبق لأحد أن أوسعني ضربًا بهذه الطريقة غير زوجتي.

- معها حق؛ ألم ترَ وجهك في المرآة ؟! إنه يثير الرغبة في الضرب

وهو يهزُّ رأسه المتورم ويتنهد مستسلمًا:

- أعلم؛ فقد كانت زوجتي تقول لي ذلك كل يوم.

سألته نورس بدافع الفضول وكأنما بدأت تتعاطف معه:

- أتضربك زوجتك كل يوم ؟!

- لا؛ فأنا رجل لديه شخصية قوية كما ترين.

- من الواضح جدًا.

- إنما تضربني فقط عندما نشعر بالملل.

- آسفة لأجلك.

- لا عليكِ؛ فقد أقلعت زوجتي عن تلك العادة السيئة منذ مدة هوينة.

- وكيف أقلعت ؟

- شكوتها إلى أخيها؛ فذهب يحدثها.

- وهو الذي أقنعها بأن تتوقف ؟

- لا؛ لقد قامت بضربه معي

- من أقنعها بالتوقف إذًا ؟

- نطحها ثور فماتت؛ لا بد أنه كان يظنها زوجته.

ابتسمت نورس لذلك العامل وقالت تتحدث عن نفسها وبالنيابة عن صديقتيها:

- أنا ورعد نسامحك.

ولكن الملكة سرابي لم تسامح عاملها وما كان ينبغي لها أن تتهاون مع أحد عمال القصر .. فقد تجاوز حدَّه مع ضيوفها واستحق بذلك أن يُعاقب.

نزعت سيفًا من غِمد أحد الجنود وهمّت بطعن العامل،

ولكن نورس تدخلت قبل أن يصل السيف إلى مرماه وأوقفته بيدها:

- ألم تسمعيني حين قلت بأنني أسامحه ؟

وصاح فرخ التنين في وجهها كما ليؤكد على كلام سيدته.

كانت ريحانة ابنة مَيثم التي عاشت طويلًا في القصور تدرك خطورة ما حدث للتو؛ لقد قامت نورس باعتراض الملكة بطريقة قد تُفسر على أنها اعتداء مباشر على الذات الملكية فقالت كما لتهدأ النفوس:

- أرجو أن يشملها عفوك؛ فهي صغيرة ولا تفهم معنى فعلتها.

تكلم ياسين:

- في شريعتنا لا نفرق بين صغير وكبير.

حافظ غيّاث على هدوئه وظل يراقب المشهد بصمت غامض مقررًا ألّا يتدخل إلا عند اللحظة الحاسمة، بينما تركت ريحانة مكانها وذهبت تقف إلى جوار نورس جاعلة من جسدها القوي حِصنًا لها:

- وفي شريعتي لا أحد يؤذي صديقتي.

أطالت الملكة سرابي النظر إلى نورس،

لم تكن هنالك بالطبع طريقة لتعرف أن تلك الصغيرة ابنتها.

أولاً:

الأرواح ليس لها ذاكرة طويلة الأمد ولذلك فإن سرابي الآن لا تتذكر

بأنها رأت ابنتها تصل بأمان إلى شاطئ مملكة التنين، وبالتالي هي ليست

متأكدة مما إذا كانت ابنتها حية أو ميتة.

ثانيًا:

لقد استحالت ابنتها الآن - ذات السنوات السبع - إلى فتاة تختلف

كثيرًا عن تلك الرضيعة التي تركتها في جوف القارب، ولا مجال للتعرف

إليها من خلال النظر أو التشبيه.

وبالرغم من هذا وذاك إلا أن هنالك شيئًا غامضًا في عيني نورس

تستشعر كان يستطيع اختراق القفص - قفص سرابي - الصدري

ويتجاوز جدار القلب وينفذ إلى أعمق نقطة فيها.

وبينما كان الجميع ينتظرون قرار الملكة؛

إذ أعادت سرابي السيف من حيث أخذته ثم قالت توجه كلامها إلى نورس:

- معكِ حق أيتها الفتاة، لقد اخطأ العامل واعتذر وانتهى الأمر.

ثم التفتت نحو غيَاث وريحانة وقالت لهما:

- لنعد إلى القاعة ونكمل حديثنا.

سار غيَاث مع الملكة نحو القاعة بينما حملت ريحانة ابنة مَيثم فرخ التنين من فوق كتف نورس وأعادت وضعه داخل القفص، ثم قالت توجه كلامها إلى الصغيرة:

- كوني عاقلة وإلا حبستك مع فرخ التنين داخل القفص.

- ولكن القفص لن يكفي كلينا يا ريحانة.

- أخرجه وأضعكِ بدلًا عنه؛ فهو لن يُسبب لنا المشاكل مثلك.

الملكة سرابي:

- تستطيعين مرافقتنا إلى الداخل إذا أردتِ يا نورس.

- هذا أفضل؛ فالنساء ينجذبن إلى والدي وفي الحقيقة أنا أخشى عليهِ منكِ.

- لا بد أن لسانكِ وُلد قبلك؛ فهو يبدو أكبر من عمرك.

قال غيّاث معتذرًا للملكة:

- لا تحتمي لها؛ إنما تستحيل أحيانًا إلى عجوزة ثرثارة صغيرة.

استدارت الملكة سرابي ثم قالت وهي تكمل سيرها إلى القاعة الملكية:

- لا تنسي أن تجلبي فرخ التنين معكِ.

تورص وهي تسير ببراءة خلفها وتسألها: هل أحببتِ رعد ؟!

- ليس حبًّا فيه، ولكننا قد نحتاج إلى قفصه لحبس بعض الأشخاص المزعجين.

**

داخل القاعة:

جلست سرابي فوق عرشها ووقف غيّاث أمامها،

ليس من عادة الملكة سرابي أن تغير رأيها في شأن قد أعطت قرارًا فيه ولكنها هذه المرة سمحت لمشاعرها بالتدخل؛ فقد جعلتها تلك الأُلفة الغريبة التي أحست بها تجاه غيّاث وابنته الصغيرة أن تصبح أكثر مرونة وتساهل:

- كيف أضمن بأن جيشك لن يغدر بنا ؟!

كان غيّاث - ولسبب ما - يعرف الكثير عن أسرار الأرض السُّفلية تلك الأسرار التي ربما لا يعرفها سكانها الأصليين حتى .. وقد حان الوقت ليستخدم أحد تلك الأسرار كضمانة يُقدمها لملكة الجن والبِن



٦

ما وراء السد الكبير

ممتطيًا صهوة جواده المجنّح حلّق غيَاث فوق الأراضي السُفلية يتبعه كلٌّ من الملكة سرابي وريحانة ابنة مَيثم حتى وصل بهما إلى سلسلة جبلية مهجورة تُدعى

(سلسلة جبال القرنين)

قالت سرابي:

- لماذا أتيت بنا إلى هنا ؟

أشار نحو منطقة محددة وقال يسألها:

- دققي النظر بين ذينك الجبلين أيتها الملكة، ألا ترين شيئًا غريبًا ؟

للوهلة الأولى كانت المنطقة ما بين الجبلين تبدو طبيعية، ولكن حين دققت سرابي النظر فيها لمدة كافية اكتشفت أمرًا يبدو غريبًا بعض الشيء:

- هنالك سدٌّ بين الجبلين.

لقد كان معها حق بأن لا تنتبه عليه من النظرة الأولى؛ فقد تم تشييد ذلك السد بطريقة يبدو فيها للناظر إليه بأنه جزء طبيعي يصل ما بين الجبلين.

- ماذا يوجد خلف ذلك السد يا تُرى ؟

- أقوام يُطلق عليهم اسم (الأجا والأجيج)

كانت سرابي قد سمعت عن أولئك الأقوام من قبل:

- ولماذا جئت بنا إليهم ؟

- لأنكِ طلبتِ دليلًا يُثبت لكِ بأن جيشي لن يقوم بخيانتكم.

أدركت سرابي الأمر الذي ينوي غيّاث القيام بفعله:

- أأنت متأكد ؟

قال وهو يلكز بطن حصانه بكعبي قدميه ويتقدم وحده نحو السد الكبير:

- إن كان هذا ما يتطلبه الأمر لكسب ثقتك؛ فأنا متأكد.

٧

الأجا والأجيج

خلقت أقوام (الأجا والأجيج) وفي داخلهم حب شديد للقتل وسفك الدماء؛ لذلك لم يستغرق غيَاث وقتًا طويلًا للتفاوض معهم حتى وافقوا على عرضه.

لم يعرض عليهم مالًا،

ولم تُغرهم الحرية التي سوف يحصلون عليها،

بل أغرتهم فكرة القتل والفوضى التي سوف يكونون شركاء فيها.

تمتم غيَاث بكلمات محددة ثم سدد لكمة قوية إلى السد العظيم أحدث بها فتحة استطاعت أقوام الأجا والأجيج بالتدفق من خلالها إلى الخارج.

فكانوا مثل سيل جارف اندفع بعد انهيار السد.

تذكرت سرابي وهي تشاهد ذلك المنظر الأسطورة القديمة التي تقول بأن لا أحد يستطيع إحداث شرخ في سد (الأجا والأجيج) إلا أحد جبّابرة الأرض.

"كانت الأرض القديمة تحمل على متنها تسعة جبّابرة، الجميع يعرفهم باسم (جبّابرة الأرض) .. وقد كانت قوة الواحد منهم تُعادل قوة جيوش بأكملها "

لم يسمح غيَاث بخروج جميع أقوام الأجا والأجيج من وراء السد؛ حتى لا يُحدث بذلك كارثة أرضية .. فأعاد مستخدمًا قوته بإغلاق الفتحة التي أحدثها مكتفيًا بأن سمح لنصفهم بالخروج، وقد كان عدد النصف منهم فقط يتجاوز وحده أعداد مقاتلي جيوش الممالك العلوية والسُّفلية مجتمعين.

وبذلك أصبح تحالف الأسفل بانضمام أقوام الأجا والأجيج أكثر قوة مما كان الملوك يطمحون إليه .. وبهذا الأمر استحق غيَاث أن تُغير الملكة سرابي قرارها من أجله وتمنحه الصوت الأخير الذي سوف يتيح لجيشه بالمشاركة في المعركة.

وفي أثناء اجتماع قيادات الأسفل لوضع خطة للمعركة قال ياسين متحدثًا:

- علينا أن نتحرك بجيوشنا إلى الأعلى فنلاقيهم قريبًا من أرض أبابيل؛ فتلك المملكة هي التي تقود جيوش تحالفات العدو ضدنا وسقوطها يعني انتهاء المعركة.

وافق الجميع على ذلك المقترح وبدؤوا بإعداد الخطط بناء عليه.

ومع فوضى التجهيزات،

لم ينتبه غيّاث للمقاتلة الصغيرة - ابنته نورس - والتي كان قد أمرها بأن تبقى في قصر مملكة الجن والإنِ حتى عودته ولكنها ت... أمره واندست بين جحافل الجنود واضعة نُصب عينيها هدفًا واحدًا مهمًّا بالنسبة لها:

(أن تحقق وعدها لوالدها وتقتل عاصف)

١

عاصف،
والصديق القديم

أخيراً:

وصلت جميع الجيوش المتحالفة إلى مملكة أبابيل،

صعد قادتها إلى قاعدة التخطيط العسكري ووضعوا خطط الدفاع والهجوم، وقد استعدوا لجميع الاحتمالات التي قد تطرأ عليهم في ساحة المعركة.

ثم كخطوة أخيرة قبل الانطلاق بالجيوش،

كان على كُبراء القادة الذهاب إلى قاعة الاجتماعات لأخذ الإذن بالتحرك.

قاعة الاجتماعات

أخفض جميع القادة رؤوسهم احترامًا للملوك إلا رأسًا واحدًا لم ينحنِ؛ إنه رأس عاصف ابن بحر الذي ظل شامخًا ينظر إلى الملوك نظرة الند للند.

لم يعتب عليه الملوك،

ولم يجرؤ أحدٌ منهم أن يطالبه بتقديم فروض الاحترام والطاعة،

ذلك أنهم كلما نظروا إليه تذكروا جده جبَّار الأباطرة؛ الأمر الذي جعلهم يعاملونه وكأنه ملك مثلهم؛ وهذا أيضًا ما جعلهم ينصبونه قائدًا أعلى لجيوشهم المتحالفة.

طلب الملوك منه أن يقطع لهم الوعد ببذل ما يستطيع لتحقيق النصر كان عاصف ينتظر تلك اللحظة منذ مدة ويتحين حدوثها ليطلب شيئًا في نفسه:

- إن سقوط القائد يعني انهيار الجيش؛ لذلك على القائد أن يمتطي صهوة حصان تضمن له الثبات في المعركة والهجوم الكاسح ومراوغة مكائد العدو.

عرض الملوك عليه أجود أنواع الأحصنة،

إلا أنه طلب حِصانًا خاصًا يتواجد في الإسطبلات الملكية لأبابيل،

كاد طاغين أن يرفض ولكن عاصف أخجله بطلبه ذاك أمام الملوك فقال عن مضض:

- اذهب إلى الإسطبل، واختر ما تشاء من الأحصنة المجنحة.

كان الإسطبل يضم أجود أنواع الأحصنة الأبابيلية،

ورغم ذلك فإن عاصف لم ينظر إلا لحصانٍ واحدٍ: إنه حصان أبيض رشيق .. ذو جناحين رهيفين طويلين كأنما استعارهما من أحد مخلوقات النور

- سابح.

التفت الحِصان نحو مصدر الصوت وهو لا يصدق ما تسمعه أذناه، وما إن رأى عاصف حتى وقف على قدميه الخلفيتين وأطلق صهيلًا عاليًا وكأنه يقول لصديقه القديم

(كنت واثقًا من أنك ستأتي)[١٢]

---

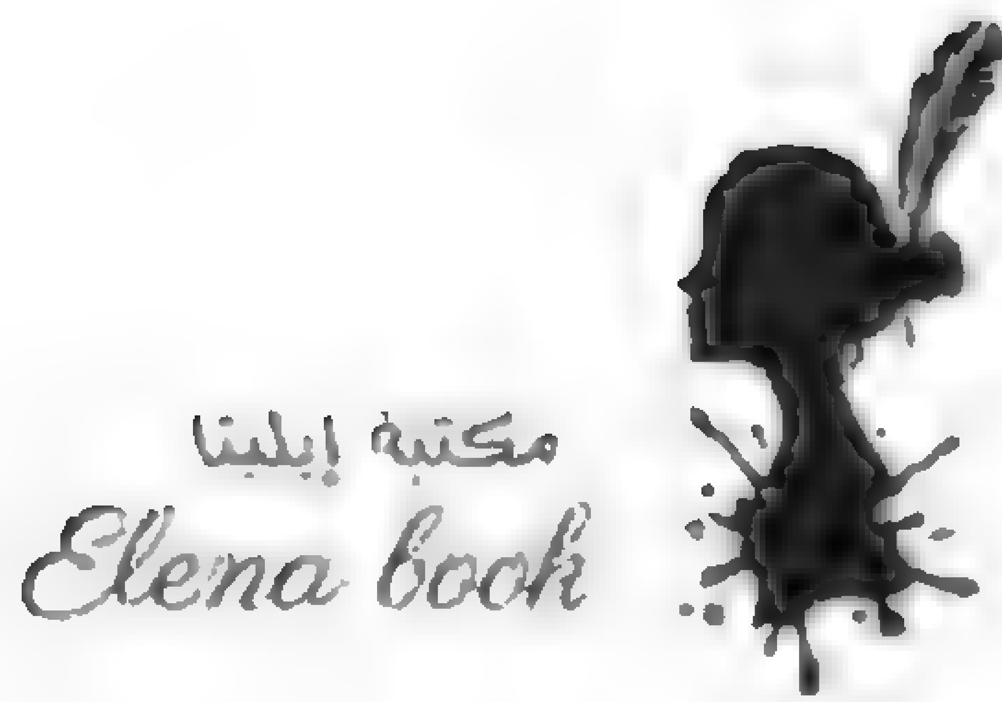
١٢ سابح هو حصان عاصف الخاص، وقد استطاع طاغين في (رواية الجسّاسة) أن يأخذه أسيرًا لديه.

امتطى عاصف ظهر حصانه المجنح ثم وجهه نحو بوابة المغادرة ونكزه في بطنه.

ركض الحصان سابح بسرعته كلها حتى إذا أصبح خارج الإسطبل فرد جناحيه الطويلين الأبيضين بلون الحليب وضرب بهما الهواء بقوة جعلته يرتفع نحو السماء.

قال عاصف ونسمات الريح تُداعب وجهه وشعره الطويل:

- سابق الريح يا سابح .. سابق الريح واهزمها.



٢

الأصدقاء

الليلة الأخيرة

ليلًا،

وقبل التحرك بيوم اجتمع عاصف بأصدقائه، إنه يعرف الأسلوب القتالي لكل واحد منهم؛ هو لا يخشى على طائر العنقاء إكليل لأنه يعلم بأن إكليل سوف يتواجد دائمًا بالقرب منه، هو أيضًا لا يخاف على الحكيم لأنه كان قد قرر عدم اصطحابه إلى المعركة، إنه فقط يخاف من تهور الشمالي وأوس؛ لذلك قال يوجه إليهما كلامه:

- التهور غير مسموح به.

الحكيم ساخرًا:

- آآخ يا رأسي، انظروا من يتحدث عن التهور !!

قال عاصف يوضح وجهة نظره في الأمر: إن المتهور هو شخص عاقل في الأساس ولكنه لا يحسب حسابًا للخطر وعواقب الأمور، أما أنا فأحمق ليس عليَّ عتابٌ أو ملامة.

الشمالي وهو يحشره في زاوية ضيقه: ولكنك قائدنا والقائد قدوة لأتباعه؛ فإذا كنت أحمق فلا تتوقع من أتباعك أن يكونوا أقل جهالة منك وحماقة.

قال أوس يُشاركهما:

- إذا كانت الشجاعة كذلك، فلا أحد منكما أحمق مني.

الحكيم وقد فاض به الكيل من أحاديثهم تلك:

- لقد عشتُ كثيرًا ورأيت الناس يتفاخرون بأشياء مثل الكرم والحكمة والقوة والكرامة، ولكنها المرة الأولى التي أرى فيها أحدًا يتفاخر بالحماقة مثلكم !!

ثم أضاف وهو يلتفت نحو إكليل:

- ألا تملك مداخلة يا طائر الشمندر ؟!

قال إكليل بنبرة ذات مغزًى:

- أنا فقط اتساءل عن سبب ارتدائك هذه الألوان السوداء.

تجمد الحكيم قليلًا لفرط دهشته، ثم التفت نحو الشمالي وسأله:

- هل أخبرت أحدًا بسر اللون الأسود ؟!!

الشمالي وعيناه تغرقان بدموع الضحك:

- لم أخبر أحدًا إلا إكليل.

الحكيم وهو يلتفت نحو طائر العنقاء ويسأله بأدب واحترام:

- هل أخبرت أحدًا بالسر أيها العم إكليل ؟!

- عاصف فقط.

والحكيم ينظر نحو عاصف بعين كسيرة:

- هل تنوي إذاعة السر غدًا على أسماع قوات التحالف ؟!

- لا، سأكتفي بأن أبتزك به فقط.

- وأنا في الخدمة دائمًا أيها العم.

قال أَوس وقد أصبح لديه الآن الفضول لمعرفة سر اللون الأسود:

- لماذا ترتدي السواد أيها الحكيم ؟!

الحكيم وهو يتحدث بنبرة بطيئة كما ليضيف إلى جوابه نبرة الغموض والإثارة:

- أرتدي السواد حزنًا على الذين سأقتلهم غدًا في المعركة.

حاول الجميع تمرير ما سمعوه، ولكن تلك الإجابة كانت أكبر من أن يستطيعوا معها منع ضحكاتهم؛ قال الحكيم معترفًا بحقيقة السر وقد طفح به الكيل:

- أرتدي الأسود لأخفي السوائل التي قد لا أنجح غدًا في حبسها أثناء المعركة.

كانت ليلة حميمة طالت فيها أحاديث الأصدقاء وتعالت فيها ضحكاتهم .. وعندما قاربت الشمس على الشروق قال الشمالي وقد أدرك أن ساعة الحسم اقتربت:

- لنحظَ بعناق أخير، فلا أحد يعلم إن كنا سنلتقي بعد نهاية المعركة أم أن هذا سيكون لقاءنا الأخير.

دام العِناق بينهم وقتًا لم يتمنَّ أحد منهم انتهاءه، وبعد ذلك حمل عاصف بيده الحكيم وقفز بحركة رشيقة ليستقر فوق صهوة حصانه سابح ثم قال يخبرهم:

- الموت غير مسموح به .. لنكن طوال الوقت في دائرة واحدة؛ حتى يحمي أحدنا الآخر عند الحاجة هل هذا مفهوم ؟!

اعتلى كل واحدٍ منهم صهوة جواده المجنح ورددوا:

- مفهوم.

- اذهبوا إلى حيث الجيوش وخذوا أماكنكم، بينما سأذهب لأضع الحكيم في مكان آمن وأعود إليكم.

الحكيم وهو يتملص من قبضة عاصف ويقول:

- مهلًا، مهلًا .. ما الذي تعنيه بمكان آمن ؟

- أنت لن تذهب معنا إلى ساحة المعركة أيها الحكيم.

- لماذا ؟! .. أهو مكان يُمنع على الرجال الذهاب إليه ؟!

- أيها الحكيم، إنني جاد فيما أقوله

- وأنا جاد !!

- ماذا ستفعل هناك ؟!

- كالذي ستفعلونه أنتم !!

يبدا عاصف محرجًا من مصارحته بالحقيقة، فقال الحكيم كما ليوفر عليه قولها: ربما لا أستطيع القِتال بجسدي هذا، ولكنني أستطيع أن أكون مفيدًا في المعركة.

- ماذا ستفعل ؟

- أنا وأنت سوف نشكل ثنائيًا رائعًا.

ثم تسلق جسد عاصف حتى اندس في أحد جيوبه، أخرج رأسه من فتحة الجيب وقال:

- أنت عليك قتالهم، وأنا عليَّ شتمهم.

كان من حق الحكيم أن يختار قراره بنفسه وعلى الجميع أن يحترموا ذلك القرار.



انطلق عاصف وأصدقاؤه نحو الجيوش المتحالفة، ليأخذ كل واحد منهم مكانه .. لقد تغير هدف المعركة بالنسبة إليهم الآن فلم تعد المهمة انقاذ سرابي من الأسر، بل عقابها لخيانتها لهم.



أخذ الأصدقاء ينتظرون سماع صوت البوق الآذن لجحافل الجيوش بالتحرك.

وكل واحدٍ منهم يتذكر وصية عاصف الأخيرة:

- تذكروا أن سرابي لم تعد صديقتنا؛ إنما عدوتكم فاقتلوها بلا رحمة.

٣

مَلحمة الأرض
الحرب الكُبرى

اشتبكت الجيوش أخيرًا والتحمت أمواج الموت العاتية،

وبدأ غبار المعركة بالتصاعد حتى تسبب الغبار بحجب ضوء الشمس عن الأرض كلها.

تقارعت السيوف ونصال الأسلحة حتى بات لقرعها أصوات تُشبه أصوات الرعد .. وبدأت الدماء بالتدفق حتى راحت شيئًا فشيئًا تغطي قشرة الأرض فتجعل منظرها من بعيد كما لو أنه جمرة مشتعلة.

كانت القوة الحربية ستكون متعادلة بين الطرفين،

ولكن الجيش غير النظامي لممالك التنين البالغ عددهم خمس مئة ألف مقاتل، وغيّاث الذي تعادل قوته وحدها جيوشًا كاملة متحدة، بالإضافة إلى أقوام الأجا والأجيج .. ساهمت كل هذه التحالفات الثلاثة في إحداث فرق هائل في ميزان المعركة جعل كفة النصر تميل بشدة إلى مصلحة الأرض السُّفلية

وفي الحقيقة لم يكن هذا فقط السبب الوحيد لاكتساح قوات الأسفل، بل كان هنالك سبب آخر أدركه الشمالي بعد مدة من بدء المعركة؛ وهذا ما جعله يترك موقعه في الميدان ويتجه نحو الموقع الذي يقاتل فيه عاصف ليخبره بما لاحظه:

- لقد لاحظت أن هنالك بعض جيوش حلفائنا لا تقاتل بالشكل المطلوب كما لو أنهم قد تلقوا أمرًا بعدم القتال بجدية؛ إننا بلا شك نتعرض للخيانة من بعض الحلفاء !!

الحكيم وهو يخرج من جيب عاصف ويقول مستنتجًا:

- إن المعركة تدور بالقرب من مملكة أبابيل، ولو انهزمنا فستكون أبابيل هي أول أرض يحتلها الأعداء؛ لذلك يجب أن نجد حلًا سريعًا قبل أن ...

لم يكمل الحكيم جملته تلك؛ ذلك أن هنالك صرخة ما قد وصلت إلى أذنه جعلته يتوقف عن الكلام .. التفت الأصدقاء نحو مصدر الصرخة

ولكن الكثير من الجنود كانوا يحجبون عنهم الرؤية،

هبط طائر العنقاء إكليل في تلك اللحظة من الجو؛ ليُخبرهم بالحقيقة التي رآها:

- لقد سقط أوس قتيلًا.

**

جعلهم الغضب على موت صديقهم يتركون العقل جانبًا ويلجؤون إلى أكثر شيء يعرفون استخدامه جيدًا (التهور) فانطلق كل واحدٍ منهم نحو هدف مختلف .. نحو الأهداف الأكثر قوة وحيوية لدى جيوش الأسفل

اختار الشمالي أن ينطلق نحو غيّاث،

بينما ترجل عاصف عن ظهر حصانه المجنح سابح ليكون أكثر خفة في الحركة، ثم أنزل الحكيم أرضًا وانطلق وحده يرافقه من الجو طائر العنقاء إكليل نحو هدف محدد

نحو سرابي..



العاصفة والسراب

رغم كثرة الجنود - جنود مملكة الحِن والبِن - الذين كانوا يشكلون أطواقًا أمنية حول ملكتهم إلا أن عاصف استطاع أن يخترق تلك الصفوف واحدًا تلو الآخر حتى وصل إليها ووقف أمامها وجهًا لوجه.

حدقت سرابي إليه،

ولكن هذه المرة لم تجد في عينيه الحب أو الحنين اللذين كانت تجدهما دائمًا، بل قرأت في البحر البُندقي الهائج لعينيه شيئًا واحدًا: الرغبة في قتلها.

صاحت في جنودها آمرة إياهم بعدم التدخل:

- قابقوا قجانبا !!

حاول بعض الجنود استهداف طائر العنقاء،

ولكنها أمرتهم أيضًا بألّا يفعلوا؛ فهي تعلم بأن إكليل لا يغدر؛ وإنما سيحوم في الهواء فقط ليضمن عدم تدخل الأطراف الخارجية في القتال الذي سوف يدور بينها وبين سيده.

لم تكن سرابي تريد مجابهته منذ البداية، كل ما كانت تريده فقط هو أن ينساها إلى الأبد ويُكمل كل واحدٍ منهما طريقه بعيدًا عن الآخر؛ وهذا ما جعلها تقول الآن:

- لا أريد قتالك يا عاصف.

- لقد قتلتِ بَرقاء وكنتِ تنوين قتل الحكيْم ثم قتلنا من بعده، لقد فعلتِ ما يستوجب قتلك ولا أستطيع إلغاء هذا الحكم عليكِ.

- ألن تحزن إن مُت ؟

- لا يُحزننا فِراق الخونة.

لم يقنعها جوابه، فعادت تقول:

- لا أصدق بأنك لن تحزن على موتي.

- يُقال بأنكِ أصبحت واحدة من أقوى نساء الأرض السُفلية .. الحزن الوحيد الذي قد يُصيبني الآن هو أن أقتلكِ بسهولة؛ فقاتلي بكل ما تستطيعين من قوة.

لم يكن أمامها خيار يجب أن تقاتل؛

فإن لم يكن من أجل نفسها فمن أجل طفلها غريد إذًا.

بدأت سرابي الهجوم: حيث قرأت طُلسمًا ما خلق منها نُسخًا كثيرة متقنة الصُنع جعلت عاصف يتوه فلا يستطيع تحديد أيٌّ منها يكون نسختها الحقيقية.

واستطاعت سرابي بذلك الأسلوب القتالي البارع أن تُسدد إليه ضربات متتالية اخترقت كل الدفاعات التي أحاط بها نفسه .. كان عاصف يُهاجم من وقت إلى آخر ولكنه في كل مرة كان يختار النسخة الخطأ منها فيضرب الهواء بدلًا من إصابتها.

ضاعفت سرابي من قوة تسديد الضربات إليه؛ الأمر الذي جعل بعضًا من ضرباتها ينجح في اختراق جسده الصلب مما تسبب في نزفه للكثير من الدماء.

كان يعلم أن هنالك طريقة واحدة لتحديد هدفه؛ فأغمض عينيه ثم هجم على إحدى النُسخ المكررة بقوة واضعًا كامل طاقته في تلك الهجمة.

كان واثقًا من أنه سوف يصيب هدفه .. وقد كانت ثقته في مكانها فقد أصاب جسدها الحقيقي هذه المرة ولم يخطأ؛ نجح في الوصول لأنه رأى بقلبه الطريق.

واشتبك الاثنان في نزالٍ محموم،

مرة تنجح سرابي في إصابته ومرة أخرى ينجح هو في إصابتها، كان كل واحدٍ منهما يريد قتل الآخر كما لو أن كل واحدٍ منهما للآخر كان عدوًّا لدودًا منذ الأزل.

وأثناء النزال أُصيبت سرابي بضربة مجهولة المصدر؛ قد تكون ضربة طائشة أو مُتعمدة من أحد جنود عاصف .. تسببت تلك الضربة بجعلها تفقد توازنها فتسقط أرضًا.

كان عاصف يستطيع تلك اللحظة أن يقتلها ولكنه كان أكثر نُبلًا من أن يستغل تعثر عدوته للنيل منها؛ فمدَّ إليها يده ليساعدها على النهوض.

وبينما هو كذلك - وقد أرخى دفاعاته تمامًا - إذ هجم عليه من الخلف أحد فرسان الجِن والبِن (ياسين) وطعنه بالرمح .. وكاد ياسين أن يكرر الطعنة مرة أخرى ليضمن قتله ولكن طائر العنقاء إكليل اعترضه بقذيفة نار سريعة.

اشتعل جسد ياسين بالنار ولكنه تدحرج أرضًا بسرعة جعلته يتخلص من ألسنة اللهب التي كادت أن تلتهم جسده .. نهض وقد قرر مهاجمة طائر العنقاء ولكنه ما كاد أن يتحرك خطوة إليه حتى سمع صوتًا من خلفه يقول:

- لقد تماديت كثيرًا.

وما كاد أن يلتفت نحو مصدر الصوت حتى سقط قتيلًا

كانت الدهشة واضحة على الملامح المنطفئة لوجهه؛ إذ إنه لم يتوقع أبدًا أن يُهاجم من قِبل ذلك الشخص: لقد كان الشخص الذي هاجمه ياسين وقتله هو (سرابي)

عادت سرابي بعد ذلك تُسند عاصف على كتفها، ثم مدت يدها ومسحت عن وجهه التراب والعرق .. وحين فتح عينيه بعد قليل ووجد رأسه مسندًا إلى كتفها قال:

- إننا بلا شك، أفشل عدوين في هذه الحياة.

- لا بأس أن نكون فاشلين في هذا الأمر.

وبالرغم من حقده عليها ورغبته الشديدة في قتلها إلا أنه أحس وهو يُسند برأسه على كتفها بنوع من الأمان الذي افتقده طويلًا.

ثم أخبرها (عن شيء ما) جعلها تضحك من قلبها وضحك هو معها .. لم يضحك لأن ما قاله كان مضحكًا بالنسبة إليه بل لأن صوت ضحكاتها كان شيئًا قد أضحك قلبه.

قالت:

- التقيتُ بصبية صغيرة اسمها نورس

ثم صمتت مخنوقة بعبرتها ولم تكمل الجملة.

قال مخمنًا:

- هل ذكرتكِ بابنتنا ؟

- لو كانت ابنتنا على قيد الحياة، لكانت ستكون بمثل عمرها تقريبًا.

- إنها ما تزال حية؛ في مكان ما على هذه الأرض.

- أتظن ذلك ؟

- نعم؛ فكل ما هو منكِ ومني لا يموت بسهولة.

في تلك اللحظة النادرة من الأمل أحس الإثنان بأن الزمن قد توقف لأجلهما، اقتربت سرابي منه حتى اختلطت أنفاسهما وكادت أن تفعل معه شيئًا لا يُتوقع من عدو أن يفعله مع عدوه.

ولكن طائر العنقاء الأحمر إكليل قطع عليهما تلك اللحظة العابرة بأن هبط إلى الأرض وقال يخبر سيده بما يحدث في الجهة الأخرى من المعركة:

- الشمالي يواجه خطرًا شديدًا !!

ما أن سمع عاصف ذلك حتى وثب قائمًا بالرغم من الجرح العميق في ظهره، ثم أرسل نظرة نحو الموقع الذي يقاتل فيه الشمالي فوجده وقد سقط أرضًا وذلك المحارب الذي اسمه غيَاث يوشك أن يقتله.

قالت سرابي:

- اذهب يا عاصف، وسنلتقي مرة أخرى لنُكمل قتالنا المعلَّق.

ترك عاصف مكانه وانطلق نحو الشمالي،

كان وهو في الطريق يندفع بسرعة جنونية قاصدًا الارتطام بذلك المحارب (غيَاث) وإبعاده عن صديقه .. ولكنه ما أن ارتطم به حتى سقط عاصف مكانه أرضًا .. وفي الجهة المقابلة: لم يتحرك غيَاث ولو شبرًا واحدًا.

نظر عاصف إلى غيّاث برعب، وقال يخاطب نفسه:

" أي قوة مجنونة التي يملكها هذا المحارب ؟! ..
لقد ارتطمتُ فيه بكل ما أملك من قوة ولم يتزحزح من
مكانه قيد أنملة !! "

همس الشمالي بصعوبة إليه:

– لن تستطيع قِتاله إنه قوي جدًّا؛ فانجُ بنفسك.

ردَّ عليه عاصف بكلام كان الشمالي قد قاله له ذاتِ مرة:

– أرأيت لو أن العالم كله يقف ضدك .. أرأيت لو أن الجميع يتركك تقاتل في ساحة الحرب وحيدًا .. ثق بأنني سأكون معك .. أقف إلى جوارك كتفًا بكتف .. قد لا أستطيع حينها هزيمة العالم ولكن من المؤكد بأنني لن أتركك تتلقى الضربات وحدك

عاود عاصف الهجوم مجددًا،

ناور غيّاث الهجمة وسدد إليه ضربة كاسحة في بطنه أسقطته إلى جوار الشمالي مرة أخرى .. كانت حالتهما سيئة للغاية ولكن حين التفت كل واحد منهما إلى الآخر ابتسما وكأنهما بشكل لا شعوري كانا يودعان بعضهما بعضًا.

همس عاصف ساخرًا من الحالة التي هُم فيها:

– يبدو أننا سنرحل معًا يا صديقي.

في تلك الأثناء كانت كوبرا أفعى الجن نارا تراقب المشهد من بعيد،

كانت تريد منع الخطر عنهما ولكنها لا تستطيع التدخل في ذلك القتال؛

فقد كان محرمًا عليها قتال أحد من نسل جبّار الأباطرة، وكانت الوحيدة

هناك التي تعرف السرّ:

فتلك المحارب (غيّاث) هو نفسه (أساطير) ابن جبّار الأباطرة.

**

أمسك غيّاث بـ عنق الشمالي ورفعه عن الأرض،

وأخذ يخنق عُنقه ببطء كما لو أنه كان يريد أن يُطيل أمد عذابه قبل

أن يقتله،

لم يحتمل عاصف رؤية ذلك المنظر، فقرر أن يشحذ طاقته الكامنة

ويجمع كامل قوته في هذه الهجمة - الهجمة الأخيرة - فصاح وهو يثب

عاليًا:

- اهجم بكل قوتك يا إكليل.

ثم اندفع هو وطائر العنقاء في هجوم مشترك نحو غيّاث،

سدد إليه عاصف ضربة بكامل ما تبقى من قوته .. وصوب إكليل عليه

من الجو قذيفة نار مستعرة توخى فيها الحذر وهو يطلقها حتى لا تصيب

الشمالي.

أصابت الضربة هدفها بنجاح؛

مما سبب موجة دخان عالية سوداء كثيفة غطت المكان بأكمله، مكث عاصف بعيدًا ينتظر نتيجة الهجوم ولكن حين انقشع الدخان الأسود من المكان ظهر غيّاث مكانه ثابتًا كالجبل ممسكًا بعنق الشمالي..

سقط عاصف على ركبتيه أرضًا وقد فقد الأمل.

**

وبينما الشمالي يلفظ أنفاسه الأخيرة وعنقه في يد غيّاث إذ التفت نحو صديق عمره: وقد أدرك تلك اللحظة أنه يحمل له حُبًّا عظيمًا؛ فقد كان عاصف بالنسبة إليه هو الأخ الذي أهدته إليه الحياة.

رفع الشمالي بصره نحو السماء، حيث النجوم الجميلة الأشبه بعيون تقرؤه وتُطالعه .. قال متأتأً بآخر نسمة هواء مخزنة في رئتيه، وكأنه يودع تلك النجوم

- هيلانا واحدة إلى الأبد.

هيلانا حسب رواية جومانا تعني: العائلة التي يختارها المرء لنفسه عندما يكبر.

كانت تلك الخسارات تفوق طاقته؛ فرفع إلى السماء رأسه وبكى
ما بكت روحه يوم فراق والدته - جومانا ابنة جبّار الأباطرة - وبينما
بكل ذلك الضعف وقلة الحيلة إذ حدث أمر غريب:

لقد بدأ هنالك دخان أبيض يتصاعد من جسده، كما لو أن جسده
كان يغلي لفرط الاحتراق والغضب، وأحس بأن هنالك نارًا جهنمية
حارقة تطبخ قلبه.

ثم فجأة انبعثت من صدره هالة سوداء غريبة توجهت مباشرة نحو
طائر العنقاء إكليل الذي كان يحوم بالقرب منه وقامت بسحبه إلى
الداخل (داخل جوف عاصف) ليندمج الاثنان في جسد واحد.

اتسعت عينا كوبرا أفعى الجن لفرط الدهشة وهي تراقب اندماج
عاصف مع إكليل؛ فيما يُعرف في الأساطير القديمة بطور خاص من القوة
يُسمى بطور (السِّجيل) ذلك الطور الذي لم ينجح في الوصول إليه غير
القليل من الأشخاص عبر كامل تاريخ الأرض القديمة.

نمض عاصف وقد ازداد طوله وتمزقت ملابسه جراء التضخم الذي حصلت عليه عضلات جسده، وانبثق من ظهره جناحان رهيفان طويلان يُشبهان في هَيبتهما سِعاف النخيل الطويلة.

تساءل غَياث بدهشة: من أنت ؟!

- أنا حِجارة من طين، طُبخت بنار جهنم.

قال ذلك ثم اختفى.

**

وبالرغم من مهارة غيَاث العالية إلا أنه لم يستطع أن يُحدد مكانه أو يتنبأ بحركته القادمة.

حين ظهر عاصف بعد قليل كان يقف مباشرة أمامه .. وسدد إليه لكمة لفرط قوتها كسرت أحد أضلاعه وقذفته إلى الوراء أمتارًا طويلة.

ورغم الألم الذي أصابه جرَّاء انكسار ضلعه إلا أن غيَاث ابتسم وهو ينهض من سقوطه ويقول: (الآن يُصبح القِتال ممتعًا) ثم التحم الاثنان في صراع عنيف.

**

٥

التسجيل

أما بالنسبة لعاصف:

فقد كان يرى تحالفاته تُهزم أمام عينيه،

ومملكة أبابيل في طريقها إلى أن تُصبح مستباحة للأعداء،

لقد فقد في حياته الكثير من الأعزاء إلى قلبه: والدته، ووالده، ابنته وجده جبّار الأباطرة، صديقه أيوب، بَرقاء، وأَوس، والآن في طريقه إلى أن يفقد الشمالي.

من بين الجثث الملقاة أرضًا،

وبكامل يقظته وحذره من أن يُداس عن طريق الخطأ،

جعل الحكيم يركض بكل سرعته متجهًا نحو الجسد الممدد أرضًا قال وهو يصل إلى وجهته:

- أيها الشمالي، هل تسمعني ؟!!

لم يجب الشمالي .. فوضع الحكيم أذنه على صدره وأصاخ السمع محاولًا الاستماع إلى صوت نبضات قلبه .. ولكن قلبه كان متوقفًا عن الحركة بسبب النقص الطويل للهواء الذي تعرض إليه.

أخذ الحكيم يقفز فوق صدره محاولًا الضغط عليه وبالتالي تحفيز قلبه للرجوع إلى العمل، ولكن وزنه الخفيف كان يمنعه من إحداث التأثير المطلوب:

- أرجوك لا تمت، أرجوك لا تمت أيها الشمالي !!!!

وبينما هو يواصل ترديد تلك العبارة باكيًا، إذ جاءه صوت من الخلف يقول:

- لا تقلق، لن يموت.

التفت الحكيم إلى مصدر الصوت،

وحين رآها - رأى سرابي - نسي أحقاده عليها وقال يتوسلها:

- أرجوكِ أنقذيه !!

تقدمت سرابي حتى إذا وصلت إليه شابكت يديها وضغطت بهما على صدره عدة مرات بقوة ولكن بلا فائدة؛ الأمر الذي جعل الحكيم يقترح عليها:

- اعطيه قُبلة الحياة !!

انحنت سرابي ووضعت شفتيها على شفتيه ثم نفخت في فمه عدة مرات وهي تُلقي عليه بعض تعاويذ الشفاء حتى عاد قلبه للعمل.

نهضت من هناك ثم قالت تمازح الحكيم وهي تستعد للمغادرة:

- لا تخبر عاصف بأمر هذه القبلة.

الحكيم وهو يمسح دموع الفرح من عينيه ويقول:

- لم يبقَ رجل في الأرض السُفلية إلا ووافقتِ على الزواج منه يا سرابي، صدقيني حتى وإن عرف عاصف بأمر هذه القُبلة فإن هذا لن يشكل فارقًا لديه.

ابتسمت سرابي لكلامه وهمّت بالمغادرة.

قال يسألها قبل أن تبتعد من هناك:

- قبل أيام جئتِ وكنتِ قد خططتِ للقضاء علينا؛ فلماذا تُنقذين الشمالي الآن؟!

"كانت تريد إيقاف الحرب حتى تضمن مستقبلًا أفضل لطفلها غريد، ولجميع الأرواح البريئة في العالم؛ كانت تريد فرض السلام على العالمين حتى وإن كان ذلك سيكلفها قتل عاصف ومن معه"

قالت تخبره بالحقيقة:

- كنت أريد منع قيام هذه الحرب .. أما الآن وقد اندلعت فلم يعد هنالك سبب يجعلني راغبة في التخلص من أحدكم.

هزَّ الحكيم رأسه متفهمًا وقال:

- شكرًا لك.

ابتسمت سرابي وهي تنظر إليه،

بادلها ابتسامة صافية بلهاء وقال يسألها:

- ما بك ؟!

- لقد أخبرني عاصف عن سر اللباس الأسود.

عبس وجه الحكيم واختفت عن وجهه الابتسامة،

قال ساخطًا وهو يضرب الأرض بقدمه وقد أغضبه أن يُكشف سره أمامها:

- كنت أعلم أن ذلك المعتوه سيفضح أمري.

- لا داعي لأن تغضب عليه، كنت سأعرف بدون أن يُخبرني حتى.

- كيف ؟

قالت مبتسمة قبل أن تختفي:

- انظر إلى بنطالك، إنه يبدو ثقيلًا لفرط ما أصابه من البلل.

صاحت الأميرة آشاس فيمن معها من المقاتلين الأقوياء:

- انصروا عاصف .. انصروا ابن بحر وصديق أيوب !!

ثم وهي تشير بيدها نحو قلب جيوش تحالفات الأرض السُفلية، حيث تتمركز قوة الأعداء الضاربة:

- اقضوا عليهم، أبيدوهم عن وجه الأرض !!

انطلقت القناطير القوية بمطارق الهلاك ورماح الموت نحو المنطقة التي تتمركز فيها أقوام الأجا والأجيج، وتساقطوا مثل نيازك تهوي من السماء عليهم.

ثم فجأة،

جاءت تعزيزات أخرى،

إنها اتحادات جيوش حجبت لفرط كثرتها ما بين المشرق والمغرب، ولكنها ظلت مكانها في السماء رابضة دون حراك فوق أحصنتها المجنحة؛ الأمر الذي جعل الجميع لا يدرون لأي فريق بالتحديد جاءت تلك التعزيزات.

الوداع

استمر القتال بين غيّاث الذي يُعد أحد جبّابرة الأرض التسعة وعاصف الذي كان قد اندمج مع طائر العنقاء إكليل وتحول إلى طور التبجيل الأسطوري.

كان نزالهما يهزُ الجبال القريبة من أرض المعركة، وقد تسبب في أن يجعل الكثير من الجنود يتوقفون عن القتال لمشاهدة ذلك الصِراع الذي لم يسبق لهم أن شاهدوا مثله يومًا

**

وفي تلك الأثناء جاءت تعزيزات غير متوقعة،

حيث امتلأت السماء بكائنات مجنحة لها أجساد نصف بشرية من الأعلى وتملك جذوع الخيول من الأسفل .. لقد جاءت القناطير للوقوف إلى جانب عاصف.

كان الحكيم حينها يختبئ أسفل أحد الجُثث الميتة،

يرقد بسلام وصمت حتى يظن الأعداء بأنه ميت؛ فلا يقتله أحد

وبينما هو كذلك إذ اقترب منه أحدهم، رفع الجثة التي كان يختبئ أسفلها

وقال يخاطبه:

- أيها المبعوث المعجزة.

" مهلاً،

هل قال المبعوث المعجزة ؟! "

التفت الحكيم نحو الرجل فوجده أحد ملوك حِلف محيط الشمال،

إنها تلك الممالك التي نجح الحكيم في إقناعهم بأنه مبعوث جاء إليهم

من عند الرب

قال الحكيم يعاتبه على تأخرهم:

- لماذا تأخرتم ؟! .. لقد أصبت بالتسلخات لكثرة البلل !!

- لقد وصلتنا رسالتك متأخرة، فأعطنا الأمر نُلبِه.

أشار إلى جيوش الأسفل وقال: أريد منكم أن تجعلوا كل واحدٍ

منهم يتمنى لو أن أمه لم تأتِ به إلى هذه الحياة - وأضاف يصرخ بصوت

غاضب حاقد:

- اقتلوهم، أبيدوهم، ولا تبقوا على رأس فوق جسد.

ساعدت تلك التعزيزات بالإضافة إلى التعزيزات التي جاءت لاحقًا نُصرة للشمالي في قلب الطاولة وجعل كفة النصر تميل نحو عاصف وتحالفاته.

وبينما القِتال مستمر بين الطرفين إذ فجأة صاح منادٍ يقول:

- **لقد قُتلت الملكة سرابي، لقد قُتلت الملكة سرابي !!**

وبدأ جنود الأسفل يُرددون وهم ينسحبون من مواقعهم تباعًا، وخلفهم تنسحب جيوشهم المتحالفة:

- لقد قُتلت الملكة، لقد قُتلت الملكة !!

استقبل عاصف ذلك الخبر كمن يستقبل صاعقة على أذنه، كان يظن أنه يريد قتلها ولكنه أدرك الآن أنه كان منساقًا وراء غضبه؛ لقد أحس بشديد الحزن عندما أدرك بأنها ماتت وتساءل في نفسه في لحظة متأخرة: كيف لرحيل أحدهم أن يجعل الدنيا تصبح بكل هذا الظلام والشمس ما تزال ساطعة في السماء ؟

لم يعد يستطيع أن يُكمل القتال مستخدمًا طور السِّجيل؛ فقد جعله الحزن يفقد قوته مما جعل إكليل يتحرر من جوفه .. وهكذا حانت فرصة غياث لأن يقتله بسهولة، ولكنه احترم بنبل شديد حزن خصمه وقال يُعزيه بهذه الكلمات قبل أن ينسحب ويتركه خلفه:

- لا تحزن؛ إن الوحدة قدر العظماء.

وبينما عاصف جاثم على ركبتيه يرى انسحاب الجنود وهم يحملون جسد سرابي المكفن بالأقمشة، إذ تذكر ذلك اليوم البعيد الذي حمل فيه رجال القرية جثمان أمه المتوفاة - جومانا ابنة جبّار الأباطرة - فوق أكتفاهم واتجهوا بها نحو حفرة قبرها.

اعتقد حينها أن أولئك الرجال يخطفون أمه فقام بمهاجمتهم؛ الأمر الذي اضطر خمسة منهم لتقييده ريثما يقوم الآخرون بمواصلة القيام بعملهم: لقد دفنوا والدته في ذلك النهار ولكنهم عن طريق الخطأ دفنوا قلبه معها.

وبينما هو ما يزال يشاهد ابتعاد جثمان سرابي إذ سمع حفيف خطوات تقترب منه، التفت عاصف نحو الخلف فشاهد فتاة صغيرة ذات عيون بندقية تطالعه بصمت غريب وتعجب من أن يرى فتاة بمثل عمرها الصغير في ذلك المكان:

- آأنت عاصف ؟

هزّ رأسه بعلامة (نعم) فقالت:

- لقد وعدت والدي بأن أقتلك.

ثم طعنته في صدره واختفت.

سقط عاصف أرضًا،

واستمر - وخده على الأرض - يراقب بعين مُغمضة وأخرى نصف مفتوحة جثمان سرابي " غيمته الممطرة " المحمولة فوق أكتاف الجنود المنسحبين.

كان ينظر إلى ذلك المشهد بقلب كسير مثل طير مبتور الجناحين أمنيته الأخيرة هي: أن يرتفع ولو لمرة واحدة كي يحتضن بجناحيه السماء قبل أن يموت.

عاصف الآن لا يهتم لدمائه التي تنزف بغزارة؛ لقد خسر بغيابها قضيته الأهم وفقد برحيلها شغف الحياة، أُغلقت عينه أخيرًا وفي جوفه سؤال واحد قال بهمس يُردده:

- ماذا أفعل حين أشتاق إليك يا سرابي ؟

جاءه طيف صوتها مع هبوب الرياح التي داعبت ملامح وجهه الذابلة يقول:

- غني لي .. غني وسيأتي طيفي ليراقصك.

ابتسم لسماعه طيف صوتها

ثم أُغلقت عيناه، وتراخت أنفاسه حتى توقفت.

١

الاجتماع السري لملوك الأرض العلوية
" ميثاق السَفك "

يقضي ميثاق (السَفك) بفرض السلام بين ممالك الأعلى والأسفل، فإذا حاول أحد الملوك كسر الميثاق - بدون وجه حق - يكون جزاؤه أن يُسفك دمه.

وفي الحقيقة:

لم يكن طاغين يهمه الحصول على الشرعية الملكية من عاصف،

كان هدفه فقط أن يستخدم (قضية عاصف) كذريعة تُبرر له الهجوم على الأرض السُفلية دون أن يكسر ميثاق السَفك؛ وقد نجح طاغين في ترويج كذبته على العالم وإقناعهم بأن له - وجه حق - في إعلان تلك الحرب حتى لا يُستخدم ميثاق السَفك ضده.

ومع انتهاء الحرب حصل طاغين على هدفه الأساسي؛

فبعد الهزيمة التي طالت الأرض السُّفلية أرسل مجموعة سرّيّة من أفراد جيشه نحو الأسفل لغرض واحد: احتلال ما يستطيعون احتلاله من المستوطنات.

وهكذا تضاعفت قوة أبابيل بشكل أرعب الممالك المحيطة بها؛ مما جعل ملوك الأعلى يجتمعون بشكل سري ويقررون فعل ما يمكنهم فعله من أجل تحجيم قوة أبابيل وقصقصة أجنحتها.

اقترح أحد الملوك:

- لا سبيل إلى ذلك غير أن نُعلن عليها الحرب.

قال آخر:

- إن جيوشنا مُنتهكة من الحرب الأخيرة وبحاجة لبعض الوقت من أجل التعافي، كما أننا أيضًا لا نملك الذريعة المقنعة للهجوم على مملكة أبابيل.

كان ملك ممالك التنين يَمان هو الوحيد الذي يعرف السبيل لتحقيق ذلك الهدف:

- يجب أن نُعيد خلق العداء من جديد بين عاصف وطاغين.

قال أحد الملوك متسائلًا:

- ألم يسقط عاصف قتيلًا عند نهاية المعركة ؟

- لا - قال يمان - فقد كانت كوبرا أفعى الجن قريبة منه؛ وقد استطاعت تقديم العلاج إليه قبل فوات الأوان، إنه سلاحنا الوحيد الذي نستطيع في الوقت الراهن استخدامه.

قال أحد الملوك مُلقيًا هذه الملاحظة: ولكنه تنازل عن العرش إلى طاغين بشهادة أسياد البرزخ السبعة، ولم يعد لديه سبب يحارب لأجله.

التفت الملك يمان نحو ذلك الملك وقال:

- لقد رأت السيدة عِزرا في البرزخ أمرًا يكفي لأن يُعطي عاصف سببًا يظل طوال الدهر أبدًا يحارب طاغين لأجله.

قال أحد الملوك بفضول شديد:

- وماذا رأت عِزرا في البرزخ ؟!

الملك يمان بنبرة غامضة تُخفي وراءها أمرًا عظيمًا:

- كل ما عليك معرفته الآن هو أن عِزرا قد ذهبت إلى طاغين وأخبرته بأمر ذلك الشيء الذي رأته في البرزخ .. وشرحت له طريقة الاستفادة منه.

وقبل أن ينتهي الاجتماع، قال يمان موصيًا بقية الملوك:

- يجب ألَّا يعرف أحد باجتماعنا هذا .. حتى لا يعرف عاصف أننا وراء المصيبة الكبيرة التي على وشك أن تحدث .. يجب أن يظل اجتماعنا هذا سريًّا على الجميع أيها السادة

٢

مملكة أبابيل

ليلة القصر

صعد عاصف والشمالي والحكيم إلى العربة الملكية التي سوف تُقلهم إلى القصر لحضور حفل الزفاف - زفاف الملك طاغين - على المرأة التي اختارها أن تكون ملكة أبابيل وشريكة حياته.

لم يكن عاصف سيوافق على تلبية تلك الدعوة ولكنه بعد صدمة موت سيلين رأى أنه حان الوقت لطي صفحة الماضي وبدء حياة جديدة خالية من الأحقاد والحروب، وقد وافقه الأصدقاء على ذلك وهذا ما جعلهم من باب صفاء النية أن يوافقوا على حضور حفل الزفاف.

لم يكن أحد منهم يخاف شيئًا؛ فهدنة الأربعين ليلة التي كان أسياد البرزخ السبعة شهودًا عليها ما تزال قائمة وبالتالي لن يستطيع طاغين الغدر بهم.

**

عند وصولهم:

كان هنالك استقبال خاص لهم عند بوابة القصر؛ الأمر الذي زاد من إحساس الأمان بداخلهم، وجعلهم يستشعرون رغبة طاغين الصادقة في إنهاء الخلاف معهم إلى الأبد.

دخل الأصدقاء القصر،

بينما ظل طائر العنقاء إكليل رابضًا فوق أحد الأغصان القريبة المطلة على القصر الملكي، وأخذ يحدق إلى الأضواء المنبعثة من نوافذ القصر المستطيلة وفي داخله إحساس غامض غير مريح.

**



داخل القصر

حضر الحفل الكثير من ملوك الأرض،

وتوافد إلى هناك عدد من الأمراء والوجهاء والنُبلاء والشخصيات ذوي المقامات الرفيعة في الأرض .. وكان في شرف خدمتهم عدد هائل من الخدم الذين لا تقل أناقة ملبسهم عن الأناقة التي كان يتميز بها أثاث القصر الملكي تلك الليلة.

انتصف الليل وقُرعت الأجراس،

وأُطفئت القناديل المعلقة على حيطان القاعة، وأُشعلت بدلًا عنها بعض الشموع ذات الاضاءات الخافتة لتُضفي على المشهد مَهابة خاصة.

عمَّ الصمت المكان واتجهت الأبصار نحو الستارة الطويلة ذات الحرير الأسود والتي سوف يخرج من ورائها بعد قليل:

الملك برفقة زوجته الملكة.



في تلك الأثناء - أثناء تواجد الجميع في القصر - ودون أن يشعر أحد بالمصيبة القادمة .. كانت رياح أبابيل تهب بقوة على الشجرة الحرّام التي تقول الأساطير عنها بأن: أغصانها لا تُهز إلا لشأن عظيم سيحدث عمّا قريب.

**



٣

الأجراس الأخيرة

قُرعت الأجراس الأخيرة:

ثم خرج الملك (طاغين) من خلف الستارة.

كانت له طلّة مَهيبة وهو يرتدي أسمال الملوك .. وكانت إلى جواره تسير امرأة ترتدي فستانًا أبيض وقد كُلل رأسها بتاج ذهبي مرصع بأنفس الأحجار النادرة الكريمة، وكانت تُرخي على وجهها أقمشة ثقيلة من المناتيل تحجب الأبصار عن رؤيتها.

حين مرّت تلك المرأة بجوار عاصف كاد قلبه أن يتوقف، ليس لأنه استطاع أن يميز هويتها؛ فوجهها ما يزال حصينًا خلف قطع الحرير الثقيلة ولكن لأنه استنشق منها رائحة كان يعرفها جيدًا؛ إنها رائحة أمه المتوفاة:

رائحة الياسمين.

أزاح الملك طاغين الأقمشة عن وجهها ليرى الجميع وجه الملكة الجديدة.

كانت امرأة طاغية الجاذبية لها عينان بُندقيتان وأنف مستقيم ووجه أبيض مرقط بحبات نمش تنتشر على وجنتيها وأجزاء معينة من رقبتها .. ولها شعر رمادي طويل عندما تجعله مسترسلًا فوق كتفيها تُصبح كما لو أنها امرأة من السماء تُلقي على الأرض نظرة من وراء سُحب الليل الرمادية المتراكمة .. كانت الزوجة هي امرأة ماتت ودُفنت منذ سنين:

إنها جومانا ابنة جبَّار الأباطرة



"

ثم على أضواء النيران المشتعلة عقدت عائلة الأباطرة اجتماعًا طارئًا ليحققوا فيه مع كوبرا أفعى الجن ثارا حول تلك الكارثة:

- كيف عادت جومانا إلى قيد الحياة ؟!

- لقد طلب مني جبّار أن أُعزز روحها بروح أخرى، فأخذتها إلى أسفل بحيرة الغابة المظلمة، وهناك قرأتُ عليها التعاويذ والطلاسم حتى نقلتُ إليها إحدى أرواحي العديدة.

- أنتِ لا تعرفين أي كارثة سوف تحدث في الأيام القادمة !!

- لقد نصحت جبّار بألّا يفعل، ولكنه لم يُنصت لنصيحتي.

سألها أحد الكُبراء:

- هل هناك غيرها ممن نظن بأنه مات، ولكنه لم يمت ؟!

صمتت كوبرا أفعى الجن، ولم تُجب على ذلك السؤال.

"



الرواية تستمر في الجزء الخامس من سلسلة

أبابيل

المؤلف:

أحمد آل حمدان ..